|  |  |
| --- | --- |
|  |  |
|  | | | الدولة الصليحية   |  |  |  |  |  |  |  |  |  |  |  |  |  |  |  |  |  | | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | | نسب آل الصليحي  وينسب (آل الصليحي) إلى قبيلة (الأصلوح) التي تعد حياً من (الأحجور) الحاشدية الهمدانية، من بني عبيد بن أوام بن حجور بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جشم الأوسط بن حاشد بن جشم الأكبر بن حبران بن نوف بن همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.  مؤسس الدولة الصليحية  قامت دولة (الصليحيين) على يد مؤسسها (أبي الحسن علي بن محمد الصليحي) وذلك في عام (439 هـ)  نشأ في بلدة (الأحروج) من بلاد الحيمة إحدى نواحي لواء صنعاء، وكان والده القاضي (محمد الصليحي) يقيم في حصن (يناع) من بلاد الحيمة وكان سني المذهب نافذ الكلمة في قومه.  بينما لم يبلغ ولده (علي) الحلم حتى كان قد تضلع بمذهب الإسماعيلية على يد آخر دعاتها (سليمان بن عبد الله الزواحي)، وكان الدافع لهذا إلى العناية بتربية (علي بن محمد الصليحي) وتعليمه مذهب الإسماعيلية ما لاح له من مخائل النبل فيه والاستعداد لحمل أعباء الدعوة الفاطمية بعد موته.  ولما حضرت الداعي (سليمان الزواحي) الوفاة أوصى بكتبه وبمال وفير لعلي بن محمد الصليحي بعد أن وافق الإمام الفاطمي المستنصر (معد ابن الطاهر العبيدي) على ذلك، ساعد (أبا الحسن الصليحي) كل ذلك على الاضطلاع بالمسؤولية دعوة وحكماً وعلى أكمل وجه.  وقد بدأ (أبو الحسن) أمره دليلاً للحاج عن طريق جبال السراة، واستمر على ذلك خمسةَ عشرَ عاماً كان خلالها يتعرف على أهل اليمن، ويجتمع بالعلماء منهم ومن غيرهم، وكان يبحث مع من يأنس بهم أمر القيام بالدعوة الفاطمية في اليمن، وعن الوسائل الكفيلة بنجاحها. وأكسبته رحلات الحج تلك خبرة بأحوال الناس، ومكنته من دراسة النفس اليمنية، وأفادته في التعامل معها طيلة عهده. وبقيام الإمارة النجاحية والدولة الصليحية قامت في اليمن حكومتان متعارضتان سياسيأ وعقائديأ، اتسمت الأولى بالسنية بحكم تبعيتها للعباسيين، واتسمت الثانية بالشيعية بحكم تبعيتها للفاطميين.  ولكن (أبا الحسن الصليحي هادن الأمير (نجاح)؛ لأنه في مراحله الأولى لم يكن يقوى على محاربته، سيما وهو يحارب مختلف الإمارات والزعامات التي كانت قائمة عند قيامه في سائر مناطق اليمن غير تهامة منطقة نفوذ (الأمير نجاح)، ولو فعل (أبو الحسن الصليحي) ولم يهادن نجاحاً لدفعه إلى مساندة القوى الأخرى ضده.ومع ذلك فقد قام الصليحي بقتل نجاح بالسم عن طريق جارية جميلة أهداها إليه كما تضافرت على ذلك كتب المؤرخين.  ثورة أبي الحسن الصليحي:  وفي العامين الأخيرين من (الخمسة عشر عاماً) التي ظل (أبو الحسن علي بن محمد الصليحي) فيها دليلاً للحاج بحث مع أعيان اليمن ممن يأنس بهم أمر القيام بالدعوة الفاطمية في اليمن ثم تعاهد مع ستين رجلاً من همدان في مكة على أن يجهروا بالدعوة، ويجاهدوا في سبيلها حتى يظفروا بها أو يموتوا، وكان المتحالفون معه في عزة ومنعة من قومهم.  وقد استطاع (أبو الحسن الصليحي) بذكائه أن يغرس في نفوس الخاصة أنه إنما يدعو لنصرة الإمام المستنصر الفاطمي، ولإعلاء كلمة الله، كما عمل مع ذلك على استمالة العامة باستقامته ومسلكه الديني، وعن طريق الجماعة التي تحالف معها من همدان كون جيشاً واجه به بعد إعلان الدعوة أعداءه الكثيرين، وفيهم من همدان نفسها من غير من تعاهد معهم.  وحدد مع خاصته يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادي الآخرة من عام (439) للهجرة موعداً لإعلان الدعوة من أعلى جبل مسار في بلاد حراز، وطلب منهم وصولهم في الموعد المذكور، وكانوا من يام نجران وسنحان صعدة، وغيرهما، وفي نفس اليوم المذكور بعث رسله إلى أتباعه القريبين منه في بلاد حراز، واجتمع له ذلك اليوم من همدان ثلاثمائة رجل عدا من اجتمع لديه من بلاد حراز والمناطق القريبة منها.  ولما كان عصر اليوم المذكور أرسل (أبو الحسن الصليحي) أربعين رجلاً من أهل هوازن من بلاد حراز إلى قمة جبل مسار للتمركز فيه، ومنع أهل مسار من الاستيلاء عليه والحيلولة دون طلوعه. أما هو وبقية أتباعه فإنهم صعدوا جبل مسار بعد صلاة العشاء، وفشلت محاولة أهل جبل مسار منعه من طلوع الجبل، ومن أعلى جبل مسار أعلن دعوته للإمام المستنصر الفاطمي (معد بن الطاهر). وفي اليوم التالي مباشرة لدعوته أحاط به على الجبل جمع كبير ذكر.  أنهم بلغوا العشرين ألف رجل ممن يجهلون حقيقة دعوته أو يعارضونها، وطلبوا منه النزول من الجبل، وقالوا له: " إما نزلت وإلا قتلناك ومن معك بالجوع". فرد عليهم بأنه لم يقصد من طلوعه الجبل إلا حفظه من أن يملكه غيرهم فيحكمهم منه، وأبدى استعداده للنزول إذا هم أرادوا ذلك فانصرفوا عنه.  وكما علمنا فإن دعوته كانت قد انتشرت سراً في المنطقة وغيرها ولا سيما بين كثير من خاصة الناس وأصحاب الكلمة النافذة فيهم ممن لا يناوئونه في حركته فتدخل أنصار دعوته ومن والاه من غيرهم وأسهموا في إقناع المعارضين من المحيطين بالجبل، واستطاعوا أن يصرفوهم عن محاصرته.  "ويؤيد هذا ما أجمع عليه المؤرخون من أنه لم يمضِ شهر واحد من دعوته حتى كان قد عمر جبل مسار، ووصلته الأموال الوفيرة من مختلف المناطق اليمنية، وساعده ذلك على أن يضاعف من تحصين جبل مسار بالبناء والعتاد والمؤن والرجال، وعلى بث دعاته إلى سائر أنحاء اليمن، بعد أن حصل على الإذن بإعلان الدعوة من الإمام المستنصر واكتسب بإذنه الصفة الشرعية لحكمه، وكان نص كتاب دعوته كالآتي :  (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد الله الذي أورى زناد الحق ورفع عماد الصدق بالذين أكمل بهم الحجة على الخلق، إلى آخر المقدمة من الحمد والصلاة والتسليم على رسول الله وعلى الإمام المستنصر الفاطمي، (أما بعد، يا أهل حراز ألهمكم الله رشدكم، وجعل الجنة قصدكم، فلم أطلع حصن مسار متجبراً باغياً، ولا مستكبراً على العباد عاتياً، ولا أطلب من الدنيا وحطامها، ولا طالباً لذلك غوغاءها وطغامها، لأن لي بحمد الله رادعاً يحجزني عما تطمع إليه النفوس، وديناُ اعتمد عليه، وإنما بالحق الذي أمر الله عز وجل، والعدل الذي أنزله في محكم كتابه، أحكم فيكم بحكم أوليائه وسنن أنبيائه، وأدعو إلى محبة الذي في أرضه، القائم بفرضه، (يعني الإمام المستنصر الفاطمي)، لست من أهل البدع ولا من ذي الزور والشنع، الذين يعطون بالدين بآرائهم، ويحكمون بأهوائهم، بل أنا متمسك بسبيل الله المتين عامل بما شرعه الله في الدين، وداع إلى أمير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين، لا أقول إلا سداداً، ولا أكره في الدين أحداً، (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما الله يريد ظلماً للعالمين)، واعلموا يا أهل حراز إني بكم رؤوف، على حمايتكم عطوف، أنظر للذي يجب عليَ من رعايتكم وحياطتكم، ويلزمني من عشرتكم وقرابتكم، وأنظر لذي الحق حقه، ولا أظلم سابقاً أسبقيته، وأنصف المظلوم، وأقمع الظالم الغشوم، وأبث فيكم العدل، وأشملكم بالفضل، فاستديموا ذلك بالشكر، ولا تصغوا إلى قول أهل الكفر، فيحملونكم من ذلك على البغي والعدوان، والخلاف والعصيان، وكفر الأنعام والإحسان، فتستوجبوا بذلك تغيير الإنعام، وتعجيل الانتقام، وكتابي هذا حجة عليكم ومعذرة إليكم، والسلام على من اتبع الهدى، وتجنب أمور الردى، والحمد الله على ما أعاد وأبدى، وصلاته على من أرشد به من الضلالة وأهدى، سيدنا محمد وآله أئمة الهدى وسلم تسليماً، وحسبنا الله ونعم الوكيل".  وقد كانت دعوته هذه موجهة كما نرى لأهل حراز دون غيرهم وهم أهله الأقربون والذين يرى وجوب إقناعهم وكسبهم قبل غيرهم.  صمود أبي الحسن الصليحي أمام مناوئيه في بداية عهده:  وبالرغم من قوة جانب (أبي الحسن علي بن محمد الصليحي وسرعة انتشار دعوته وإجابة الكثير لها فإن كثيراً من رؤساء اليمن أصحاب النفوذ المحلي والكثير من أمراء اليمن وسلاطينها وأئمة الزيدية فيها، لم يرضخوا لحكمه إلا بعد معارك حربية معه، ومحاولات كثيرة بذلوها للقضاء عليه.  ومن أولئك الأمير (جعفر بن الإمام قاسم بن علي العياني) الذي تحرك من بلاد صعدة على رأس جموعه نحو حصن الأخروج في بلاد الحيمة بغية الاستيلاء عليه والتحصن فيه والانطلاق منه لحرب (أبي الحسن الصليحي)، ولكن حامية الحصن وعلى رأسهم عامل (أبي الحسن الصليحي) عليه (الحسين بن مهلهل) صمدوا في وجهه ومنعوه من الاستيلاء عليه، ومع ذلك فقد استمر في حصار الحصن ولم يرتفع عنه إلا بعد مقتل (جعفر بن عباس الشاوري) وانهزام جيشه في المعركة التي خاضها معه (أبو الحسن الصليحي)، وكان الشاوري من أنصار المذهب السني في بلاد المغارب من لواء حجة، وقد جاء على رأس جموعه لحرب الصليحي، ودارت الدائرة عليه وعلى جيشه الذي كان يتكون من ثلاثين ألف مقاتل، وكانت المعركة التي قامت بين الجانبين في موضع (عبرى دعاس) أسفل حراز، أي أن الشاوري غزا الصليحي إلى عقر داره، وإن الصليحي لم يكتف بالتحصن في جبال حراز المنيعة، وإنما نزل على رأس جموعه لمنازلة الشاوري وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً حطم معنوية الأمير جعفر العياني المحاصر لحصن الأخروج فانسحب منه كما عرفنا، وقد غنم الصليحي من جيش الشاوري مغانم كثيرة ضاعف بها من تقوية جانبه، وأجبر الكثير من أهل بلاد حراز الذين لم يكونوا قد أعلنوا ولاءهم على الولاء، باستثناء (أبي النور بن جهور) صاحب حصن لهاب أحد حصون حراز المنيعة، فإنه أعلن تمرده على (أبي الحسن الصليحي)، وقد قام الصليحي إزاء ذلك بتقوية تحصين الجبال المسامتة لطود (لهاب) بالرجال والعتاد والمؤن كجبل شبام وغيره ثم حرك جيشه لحرب ومحاصرة (ابن جهور) حتى اضطره إلى التسليم والوصول إلى الصليحي الذي أحسن استقباله وإكرامه.  مؤتمر عبرى دعاس:  ثم أقام (أبو الحسن الصليحي) مؤتمراً في (عبري دعاس) أسفل بلاد حراز أمر الناس فيه بإقامة الصلاة وإحياء الفرائض وعمارة المساجد، وإيقاد المصابيح فيها، وأكد لهم أن الأمر الذي قام به ليس هو من أمور الدنيا، ولا مراد كمراد السلاطين، بل قام مؤثراً لأمر ولي رب العالمين، مجاهداً في سبيله، غير مكره لأحد في الدين، ولا طالب إلا رضى رب العالمين، وأنه لا يسير بهم إلا بسيرة الحق والعدل، وأنه مجبول على ذلك. كما حذر الناس من الشقاق والخلاف.  ثم تقدم إلى العمال في ذلك المؤتمر وأوعدهم بالتنكيل إن رفع إليه شيء مما نهاهم عنه، ووعدهم بحسن السياسة وأنه لا يخالف الكتاب والسنة، وأمر جميع الرعايا بأن يرفعوا إليه ما يكون من العمال من القبيح والحسن، حتى يُنزل بهم إنعامه وعقوبته بحسب أفعالهم ".  اتساع نفوذ أبي الحسن الصليحي واستيلاؤه على صنعاء  ثم استولى (أبو الحسن الصليحي) على جبل حضور في مخلاف حضور من بلاد البستان إحدى نواحي صنعاء وفيه جبل النبي شعيب الذي يعتبر أعلى جبل في اليمن، وحصنه، وكان قد استولى على حصن يناع في بلاد الحيمة من لواء صنعاء، ولما بسط نفوذه على جميع بلاد حراز وعلى الجبال المنيعة فيها وفي المناطق المجاورة لها قرر أن يتبع سياسة المهادنة مع سائر السلاطين ورؤساء القبائل الذين لم يكونوا قد أعلنوا ولاءهم له حتى ترسخ سلطته ويتوطد نفوذه في المناطق التي قد استولى عليها.  وحدث أن توفي السلطان (يحيى بن أبي حاشد بن العباس بن الضحاك الحاشدي) في صنعاء، وكان ولده (أبو حاشد) قد تسلم حكم صنعاء في حياة أبيه في تلك الفترة ونازع الإمام الديلمي عليها، فبعث أبو الحسن الصليحي وفداً إلى السلطان (أبي حاشد) يعزيه بوفاة أبيه، ففسر (أبو حاشد) ذلك ضعفاً من (أبي الحسن الصليحي) أو تدخلاً في شؤونه (على اختلاف بين المؤرخين) وقام بحشد جموعه والتقدم بهم لمحاربة الصليحي، ولكن هذا بادره قبل أن يصل إلى حراز والتقى معه عند قرية (صوف يازل) بين مخلاف حضور ومخلاف (بني شهاب) وقامت معركة بينهما أسفرت عن مقتل (أبي حاشد) وانهزم جيشه بعد مقتل عدد كبير منه بلغ ألف قتيل، حتى ضُرب المثل بتلك الوقعة وصارت تعرف بقتلة صوف لكثرة من سقط فيها من القتلى، وكان للحادث أثره في الانتصارات التي توالت لأبي الحسن الصليحي بعده، والتي استطاع بها أن يوحد اليمن جميعه في ظل رايته، وقد واصل أبو الحسن الصليحي تقدمه بعد انتصاره في حربه مع (أبي حاشد الحاشدي) نحو صنعاء واستولى عليها وذلك في عام (440) للهجرة.  مقتل الإمام أبي الفتح الديلمي  ولما استقر الملك (أبو الحسن علي بن محمد الصليحي) في صنعاء ركز على إقرار الأمور في المناطق التي قد بسط نفوذه عليها وأهمها عاصمة اليمن (صنعاء)، ويبدو أنه لم يقم بتحرك عسكري خارجها حتى عام (444) للهجرة، حيث قام فيها بالتحرك منها على رأس جموعه لحرب الإمام (أبي الفتح الديلمي)، وقد اشتبك معه عند نجد الجاح شرقي رداع في معركة كبيرة أسفرت عن مقتل الإمام الديلمي وانهزام جيشه،ودفن الإمام في (قاع ردمان) في المنطقة والتي سميت من يومئذٍ بقاع الديلمي، وقبره ما يزال معروفاً فيه إلى اليوم.  فشل التحالف ضد أبي الحسن الصليحي:  وفي عام (448) للهجرة تحالف (سلامة بن الضحاك الحاشدي) و(علي بن ذعفان الحاشدي) و(عبد الله بن جعفر بن قاسم العياني) على حرب (أبي الحسن الصليحي) وتجمعوا بحشودهم في (حاز) من بلاد همدان صنعاء، ولما بلغ الصليحي بادرهم إلى المكان المذكور، وفي ساعة مبكرة من ليلة وصوله إليهم هاجمهم إلى معسكرهم فولوا منهزمين، فتعقبهم حتى لاذوا بالفرار ولجأ زعماؤهم بـ (حصن هرابة) في وادعة حاشد) وحاصرهم فيه سبعين يوماً، وضرب قرية هرابة بالمنجنيق، وقطع عنهم المدد والماء حتى سقطت القرية وسقط الحصن في يده وسلم الأمير (عبد الله بن جعفر العياني) نفسه إلى أبي الحسن الصليحي، الذي أحسن استقباله كعادته وخلع عليه وعاد به وبالأسرى إلى صنعاء وقال الصليحي يومئذٍ : "لو ملكت رجال الهرابة لملكت بهم الروم ".  قيام الحرب بين (أبي الحسن الصليحي) والأمير نجاح  وكان (أبو الحسن الصليحي) يهادن ويلاطف الأمير نجاح حاكم تهامة حتى استطاع الإمام الديلمي أن يفسد ما بينهما وأن يغري نجاح بحرب الصليحي الأمر الذي حمل نجاحاً على أخذ أهبته لغزو الصليحي وحربه، ودفع الصليحي إزاء ذلك إلى أن يبدأ بحرب الإمام وحدث أن قضى عليه كما عرفنا.  ولما تقدم الأمير نجاح بحشوده إلى الخبت بالقرب من صعفان حراز تقدم الصليحي بجموعه وقامت حرب بينهما استمرت عدة أيام تغلب جيش الصليحي في نهايتها، وانسحب نجاح قافلاً إلى تهامة.  وفيها حشد المزيد من القوات ذكر أنها بلغت عشرين ألف مقاتل جهزها وأرسلها إلى المخلاف السليماني شمال منطقة نفوذه طالباً من (ابن طرف) حاكم المخلاف المذكور الانضمام إليه بقواته لحرب الصليحي، والظاهر أن الأمير نجاح حشد قواته في شمال بلاده حدود بلاد (ابن طرف) من جنوبيها لا داخل بلاد ابن طرف. وعلى كلا الاحتمالين فقد اجتمعت قوتا الحليفين نجاح وابن طرف في المخلاف السليماني.  ولما بلغ الصليحي ذلك بادرهم بنفسه على رأس ألفين وسبعمائة فارس من أبطال رجاله، والتقى الجمعان في محل يعرف بالزرائب من المخلاف السليماني المذكور وقامت معركة حامية بين الجانبين أسفرت عن انتصار الصليحي ومقتل عدد كبير من الأحباش النجاحيين وحلفائهم ولجوء باقيهم إلى جبل يعرف بالعكوتين في المنطقة، وعاد الصليحي ظافراً، ولم تكن هذه الحرب هي نهاية الصراع بين (الصليحيين) و(آل نجاح). ولكن (أبا الحسن الصليحي) أجل استئناف الحرب معه حتى يقضي على الإمارات الصغيرة القائمة في اليمن الأسفل وعدن.  انتصارات أبي الحسن الصليحي في اليمن الأسفل وعدن  واستعداداً لانقضاض (أبي الحسن علي بن محمد الصليحي) على إمارة آل نجاح، والإجهاز عليها، تحرك بجيوشه في عام (450 هـ) نحو اليمن الأسفل وعدن، واستولى على إمارة (بني الكرندي) حكام مخلاف الجند ومخلاف جعفر والمعافر (بلاد الحجرية)، ولم يشدد الضغط على السلطان (أحمد بن يعفر الكرندي) الذي تحصن بجبل السوى من أعمال جبل حبشي بلاد الحجرية، واستولى على حصون تلك المناطق، بما فيها جبل صبر، وحمن الدملوة في بلاد الصلو من أعمال الحجرية أيضاً، واستولى على حصن حب في بلاد بعدان وعلى بلاد الشعر وبلاد بعدان وعلى بلاد السحول ومخلاف الشوافي بعد أن أخضع حاكمها (أبا عبد الله الحسين التبعي)، واستولى على جميع حصونها، ثم دخل الجند وخطب فيها الناس لصلاة الجمعة وقال في نهاية الخطبة: "وفي مثل هذا اليوم نخطب في جامع عدن". ويذكر أن رجلاً كان حاضراً قال مستهزئاً حين سمع الصليحي يقول ذلك: "سبوح قدوس"، ولما أُخبر الصليحي بذلك أمر بالتحفظ عليه، ولما خطب الصليحي في اليوم الذي حدده في جامع عدن، قال الرجل: (سبوحان قدوسان) واعتنق المذهب الإسماعيلي.  ويبدو أن أبا الحسن الصليحي هادن (بني معن) حكام عدن لاستسلامهم له وعدم مقاومته، وأبقاهم على ما بنظرهم نواباً له، ولما زوج ابنه (المكرم أحمد بن علي الصليحي) السيدة بنت أحمد الصليحي جعل خراج عدن صداقاً لها، وظل بنو معن يرفعونه إليها في حياة أبي الحسن الصليحي وبعد موته، ويبدو أن ذلك شجعها وساعدها على القيام بالأعمال العمرانية الجليلة ومنها شق الطرقات وتعبيدها بالأحجار كما سيأتي، ثم واصلت تلك الأعمال وتوسعت فيها بعد استقلالها بالحكم إثر موت زوجها الملك المكرم المذكور.  ولما حاول (بنو معن) قطع ما كانوا يؤدونه من الأموال بعد موت الملك (أبي الحسن الصليحي)، قام ابنه الملك المكرم المذكور بعد حسم الاضطرابات واستتباب الأمور لصالحه بغزوهم أي بني معن والقبض عليهم، وإسناد أمر ولاية عدن وأعمالها إلى (العباس) و(مسعود) ابني الكرم الجشمي الهمداني كما سنعلم تفصيلأ في فصل (آل زريع).  امتداد نفوذ أبي الحسن الصليحي إلى الحجاز  لم يكتف (أبو الحسن الصليحي) بما بلغه من نفوذ في اليمن، بل تطلع إلى بسط نفوذه إلى الحجاز، لأن الحجاز في نظره هو أقرب البلدان الإسلامية إلى اليمن، وفيه الأماكن المقدسة، وكجزء مما كان يطمح إليه من تحقيق وحدة إسلامية، تدين بالولاء للفاطميين في أكثر من بلد إسلامي، بما فيها العراق، بعد القضاء على العباسيين.  وقد انتهز فرصة خروج والي الحجاز (أبي عبد الله شكر بن أبي الفتوح الحسيني) عن الدعوة الفاطمية وقطع الخطبة للإمام المستنصر الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي، فاستأذن الإمام المستنصر بغزو الحجاز، وإزالة الشريف شكر عن حكمه، وضم الحجاز إليه لضمان دوام نفوذ الدعوة والدولة الفاطمية فيه، فأذن له الإمام المستنصر بغزو الحجاز على أن لا يسفك الدماء في مكة.  وتحرك (أبو الحسن الصليحي) من اليمن نحو الحجاز بقوة كبيرة من الفرسان في شهر ذي الحجة من عام (454 هـ)، واستصحب معه ملوك اليمن وزعماءه، ودخل مكة وقضى مناسك الحج، ولكنه لم يصل مكة إلا وقد توفي الشريف شكر بن أبي الفتوح، وخلفه الشريف (محمد بن جعفر ابن أبي هاشم الحسيني).  وأقام (أبو الحسن الصليحي) في مكة حتى يوم عاشوراء من عام (455 هـ)، أجزل للناس فيها الهبات والصدقات، وكسى الكعبة بالديباج الأبيض، ثم عاد إلى اليمن مطمئناً إلى ولاء الشريف محمد بن جعفر المذكور للإمام الفاطمي، والدعوة له، ولكنه لم يلبث بعد عودة الصليحي إلى اليمن أن خرج عن الولاء للفاطميين وأعلن ولاءه للعباسيين.  قضاء أبي الحسن الصليحي على إمارة آل نجاح:  قام أبو الحسن الصليحي فور عودته من رحلته إلى الحجاز بإخضاع الخارجين على دولته من زُبيد (بضم الزاي وفتح الباء) وعنس واستولى على حصن مثوة في منطقتهم، وكانوا قد. تابعوا رجلاً تمركز فيه.  وفي نفس العام المذكور (455 هـ) قام (أبو الحسن الصليحي) بالتحرك على رأس جيوشه نحو تهامة للقضاء على إمارة (آل نجاح) فيها، وكان الأمير نجاح قد مات كما ذكر بالسم عن طريق جارية أهداها له الصليحي في عام (452 هـ).  وقد استولى الصليحي على مدينة زبيد عاصمة الإمارة بعد أن ابتعد عنها القائم عليها (مرجان الكهلاني)، أما أولاد الأمير نجاح فإنهم فروا إلى جزيرة دهلك بالبحر الأحمر مقابل، أريتريا، باستثناء الابن الأكبر (أبو المعارك بن نجاح) فإنه قتل نفسه، ثم بسط الصليحي نفوذه على تهامة كلها، وبذلك تم له القضاء على إمارة آل نجاح التي تعتبر آخر إمارة يمنية بسط نفوذه عليها، وحقق بذلك الوحدة اليمنية تقريباً.  وهنا يذكر المؤرخون حكاية لطيفة عن تولية أبي الحسن الصليحي لصهره (أسعد بن شهاب) تهامة، وهي أنه كان قبل استيلائه عليها قد أقسم أنه لا يولي عليها إلا من يدفع إليه مائة ألف دينار، ولما قرر تولية أسعد بن شهاب عليها تحير، فقامت زوجته (أسماء بنت شهاب) بتقديم المبلغ إليه مقابل تولية أخيها أسعد، وأن أبا الحسن الصليحي قال لها: " يا مولاتنا من أين لك هذا ؟ " فقالت: (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب). فتبسم وعرف أنه من خزائنه وقبضه وقال:"بضاعتنا ردت إلينا" فقالت أسماء: (ونمير أهلنا ونحفظ أخانا)، وولى أسعد بن شهاب تهامة.  مقتل أبي الحسن الصليحي  استأذن (أبو الحسن علي بن محمد الصليحي) الإمام المستنصر الفاطمي (معد بن الطاهر) الوصول إلى مصر لزيارته بعد أداء مناسك الحج، فأذن له بالحج دون أن يأذن له بزيارة مصر، وذلك لئلا يطلع الصليحي على المشاكل الداخلية القائمة في مصر فيما يبدو.  وتحرك (أبو الحسن الصليحي) من صنعاء نحو مكة يوم الاثنين السادس من شهر ذي القعدة من عام (459 هـ) واستصحب معه كعادته جميع ملوك اليمن وأمرائه وزعمائه وعددهم خمسون للحج معه، ولئلا يحدثوا في غيبته حدثاً ضد ولي عهده ابنه (المكرم أحمد بن علي الصليحي)، كما استصحب معه سبعين أميراً ورئيساً من الصليحيين وغيرهم من يام وجنب وسنحان صعدة وحراز وغيرهم، وقدمهم أمامه، وسار هو في ألفي فارس، وبين يديه خمسمائة حربة مطهمة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، وخمسين هجيناً، وكثيراً من الآلات وصنوف الزينة وغيرها.  ولما كان مخيماً بضيعة تعرف بأم الدهيم وبئر معبد بالقرب من مدينة المهجم بوادي سردد من بلاد تهامة هاجمه سعيد الأحول بن نجاح، بخمسة آلاف حربة جمعهم من تهامة ومن جزيرة دهلك ومن الحجاز وغيرها طيلة فترة إبعاده وإخوته عن الحكم، وجميعهم من فرسان الأحباش من بني جلدته وقومه الذين قضى (أبو الحسن الصليحي) على مصالحهم وعلى نفوذهم عند استيلائه على إمارة (آل نجاح)، وقضى على تجمعهم وتمركزهم داخل تهامة وشردهم في بعض مناطق اليمن وخارجه، وكان أبو الحسن في قلة من حرسه وعسكره وحاشيته، لأنه كان قد قدم جمهرتهم قبله، لئلا تضيق بهم الطريق، وقتله وقتل أخاه عبد الله بن محمد الصليحي غدراً، ثم حاصر مخيم السيدة أسماء بنت شهاب زوجة الملك أبي الحسن الصليحي ثلاثة أيام بغية أسرها.  دافع ولدها الموفق والمهنا علي بن المظفر الصليحي وحرس الملك الخاص عنها خلالها، ولم يستسلموا إلا بعد أن منحهم سعيد الأحول بن نجاح الأمان، وأعطاهم المواثيق والعهود على ذلك، ولما سلموا أنفسهم إليه قتلهم جميعاً، باستثناء السيدة أسماء بنت شهاب التي أسرها، وكان قد قتل مع أبي الحسن الصليحي وأخيه عبد الله عدداً من أمراء وملوك اليمن، وكان ذلك في اليوم الحادي عشر من شهر ذي القعدة من العام المذكور.  ثم نقل السيدة أسماء إلى زبيد حيث أودعها أسيرة في دار شحار إحدى دور الإمارة فيها، وعلق رأسي زوجها وأخيه عبد الله أمام نافذتها، وظلت في الأسر عاماً كاملاً، كان يأمل فيما يبدو أنه سيساوم بها ابنها المكرم، بأن يفرج عنها مقابل تعهده بعدم محاولة استعادة نفوذه على تهامة، وأن يترك لآل نجاح حكمهم عليها كحق شرعي لهم عليها، وذلك في حالة خروجه من المحنة واحتفاظه بملكه، ولم تتغلب عليه القوى المختلفة التي ثارت عليه في أماكن كثيرة من اليمن بعد مقتل أبيه.  وقد أشاد شعراء آل نجاح بالحادث ومنهم الشاعر العثماني حيث أنشأ قصيدة جاء منها قوله:  نكرت مظلته عليه فلم ترح إلا على الملك الأجل سعيدها  سود الأراقم قابلت أسد الشرى وارحمتا لأسودها من سودها  ما كان أقبح وجهه في ظلها ما كان أحسن رأسه في عودها  هذا وكان الملك (أبو الحسن الصليحي) حين جاءه كتاب واليه على زبيد (أسعد بن عراف) يخبره بخروج سعيد الأحول من جزيرة دهلك مع مجموعة من فرسانه وبني عمه لقتله، قد أرسل خمسمائة حربة من عبيده الأحباش وأولياء نعمته ليتصدوا لسعيد الأحول وقال لهم: "خذوا رأس الأحول وأخاه جياش" ولكن عبيد أبي الحسن الصليحي اختلفوا مع سعيد الأحول ورجاله في الطريق، أو أنهم تعاطفوا معهم وهم أبناء عمومتهم وجنسهم (على اختلاف في روايات المؤرخين) وتمكن (سعيد الأحول بن نجاح) ورجاله من الوصول إلى معسكر أبي الحسن الصليحي، وإلى مخيمه وقتله باستثناء زوجته أسماء بنت شهاب، وكان حرس الصليحي القليلون يعتقدون أن الأحول ومن معه هم من عسكر الصليحي الأحباش (ولا حذر من قدر)  ولقد روى قصة الحادث الأمير (جياش بن نجاح) في تاريخه (المفيد): كما حكى ذلك عنه (الخزرجي) في تاريخه (العسجد المسبوك) (نسخة) (دار الكتب المصرية) (مخطوطة) حيث قال: (وسرنا في طريق الساحل خوفاً من العسكر فكتب (أسعد بن شهاب) (صوابه أسعد بن عراف) عامل الصليحي على زبيد من زبيد إلى الصليحي يعلمه بخروجنا وعددنا، فسير الصليحي من ركبانه خمسمائة حربة من الحبشة، وأكثرهم من مماليكنا وبني عمنا، وقال: (خذوا رأس الأحول ورأس أخيه) فخالفناهم في الطريق، ولم نزل نجد السير ليلاً ونهاراً إلى أن دخلنا طرف المخيم والناس يظنون أنا من جملة عسكره وحواشيه، ولم يشعر بأمرنا إلا (عبد الله بن محمد الصليحي) فإنه ركب فرسه وقال: (يا مولانا اركب، فهذا والله الأحول بن نجاح العدو الذي جاءنا به كتاب أسعد البارحة من زبيد) وكان علي بن محمد الصليحي قد دخل الخلاء، وكنت أول من طعنه، وشركني فيه عبد الملك بن نجاح طعنة أخرى، وحززت رأسه بيدي، وركبت فرسه المسمى بالدنان، وحمل فينا أخوه (عبد الله بن محمد) وكان فارس العرب، وقتل منا رجالاً، ثم حمل عليه رجل منا وسقط معه إلى الأرض، ونادى صاحبنا اقتلوني أنا والرجل، فشكهما الملك سعيد الأحول بحربته، وضرب رأس عبد الله وهو يظنه علي بن محمد الصليحي، ووقف الأسرى أمامه على باب المجلس الذي فيه السيدة أسماء بنت شهاب، وقال: اخرجي صبحي على السلاطين، فقالت: لا صبحك الله يا أحول بخير، ثم أبدت وجهها وأنشدت قول امرىء القيس:  وإنك لم يفخر عليك كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يغلبك مثل مغلب  وأضاف الخزرجي متابعاً حكاية القصة عن جياش فقال: "وعزت نفس سعيد من يومئذٍ وشمخ بأنفه علي وأنا ابن أبيه وأمه، وذلك أني أشرت عليه بأن يحسن للسيدة أسماء بنت شهاب، وأن يعفو عمن قدر من (آل الصليحي) وغيرهم من أبناء الملوك، وأن يكتب إلى ولدها المكرم: إنا قد أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا، وقد أحسنا وتجملنا إليك بصيانة والدتك والعفو عن بني عمك وقلت له: لئن فعلت ذلك يا مولانا ما نازعتك قحطان في ملك تهامة، ولئن كرهت ذلك لتهيجن حفائظها، وتلظين بنارها، فإنهم أهل نفوس أبية وهمم عربية، فأجابني بقول الشاعر :  لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا (1)  وقتل من ظفر منهم، إلا ثلاثة منهم فلم يقتلهم، وهم: (كما حكى ذلك الجندي في تاريخه (السلوك) (مخطوط): (وائل بن عيسى) صاحب وحاظة، و(علي بن معن) صاحب عدن، و(ابن الكرندي) صاحب المعافر، وقد رثى أبا الحسن الصليحي الشاعر (عمرو بن يحيى الهيثمي) بقصيدة جاء فيها قوله:  وأنشأ الحج إلى مكة يبغي رضى الله وآل البتول  وارتجت الأرض له خيفة بمن بها بين فرات ونيل  وقام بالجيش وأضرابه شم العرانين كرام الأصول  فصار في المهجم في عصبة من قومه غالته دهياء غول  كالليث في الغابة دبت له رقطاء ليلاً ذات شخص ضئيل  فإن يكن نيل على غرة فالبدر لا بد له من أفول  كما رثته أخته الحرة الزكية السيدة تحفة بنت محمد الصليحي بقصيدة قالها الشاعر (الحسين بن علي القم) على لسانها جاء منها:  رزئت من الأملاك كل متوج كثير غبار الجيش طلاع أنجد  أأبكي علياً أم أخاه الذي فدا وأكرم مفدي هناك ومفتدي  أم الثالث اللاقي الحراب بنحره وقد نهلت من كل أغيد أصيد  فلله أسد صرعت بثعالب ولله أحرار أذلت بأعبد  ملوك ترى الأملاك حول دسوتهم صفوفاً عكوفاً من قيام وسجد  أشهر حكام الدولة الصليحية ( صنعاء – جبلة ) (439 - 532 هـ/ 1047- 1138 م)   |  |  |  | | --- | --- | --- | | مدة حكمه | اسم الحاكم | م | | 439-458 هـ/ 1047-1066 م | علي بن محمد الصليحي | 1 | | 458-484 هـ/ 1066-1091 م | المكرم بن علي بن محمد | 2 | | 484-492 هـ/ 1091-1099 م | سبأ بن أحمد بن المظفر | 3 | | 492-532 هـ/ 1099-1138 م | سيدة بنت أحمد الصليحي | 4 |   ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ  المصدر : ( تاريخ اليمن السياسي ، محمد يحي الحداد ). |  | |  |  |
|
|  | | | الجزء الرابع :  باب ذكر علي بن فاضل بن أحمد الجدني: كان من خبره أنه لما افترق هو والمنصور بغلافقة وخرج إلى اليمن أيضاً وفيها جعفر بن إبراهيم المناخي وخرج إلى جعفر من (أبين وفيها رجل من الأصابح يقال له محمد بن أبي العلاء فخرج القرمطي إلى جيشان ثم خرج إلى (سرويافع) فتفرسهم فعلم أنهم أسرع الناس إلى إجابته فطلع رأس جبل وبنى فيه مسجداً وأخذ بالنسك والعبادة، فكان نهاره صائماً وليله قائماً، فأنسوا إليه وأحبوه وافتتنوا به، ثم إنهم قلدوه أمرهم وجعلوا حكمهم إليه فسألوه أن ينزل من ذلك الجبل ويسكن بينهم.  فقال: "لا أفعل هذا ولست أسكن بين قوم جهال ضلال إلا أن يعطوني العهود والمواثيق أن لا يشربوا الخمر" ففعلوا له ذلك وإنهم ينكرون المنكر وينكرون أهل المعاصي بأجمعهم فلم يزل يخدعهم بعبادته حتى بلغ إرادته وأمرهم ببناء حصن في ناحية (سرويافع) فأطاعوه وسمعوا لأمره ثم إنه انهبهم أطراف بلدان ابن أبي العلاء وأراهم أن ذلك جهاد لأهل المعاصي حتى يدخلوا في دين الله طوعاً أو كرهاً، وأمرهم أن يتخطفوا بلاد ابن أبي العلاء فاشتد بأسهم فكانوا لا يلقون جمعاً إلا هزموا وظفروا عليهم وذلك لما سبق من علم الله من فتنة المسلمين على يديه لعنه الله، فلما شاع ذكره وسمع به جعفر ابن إبراهيم كاتبه وفرح به وذلك لشحناء بينه وبين ابن أبي العلاء لقرب القرمطي إليه فكاتبه جعفر على مطابقته على حرب ابن أبي العلاء ووجه من عنده عسكراً إلى القرمطي وتعاقدا أن يكون جميع ما يفتح من بلدان ابن أبي العلاء بينهما نصفين، فخرج القرمطي لحرب ابن أبي العلاء بقبائل يافع وعسكر جعفر فهزمهم ابن أبي العلاء وقتل منهم قتلا كثيرا وانهزم القرمطي إلى (سبأ صهيب) فلما كان الليل جمع أصحابه وقال لهم: "إني أرى رأياً صائباً أن القوم قد أمنوا منا وقد علمتم ما فعلوه بنا وأرى أن نهجم عليهم فإنا نظفر بهم فأجابوه إلى ذلك وهجم عليهم إلى (حنفر) فقتل ابن أبي علاء وعسكره واستباح ما كان له, وأخذ من خزائنه تسعين ملحماً في كل واحد عشرة آلاف، فلما رجع إلى بلاد يافع عظم شأنه وشاع ذكره وأجابه قبائل مذحج بأسرها وزبيد ومالا يحصى عدده، فلما بلغ ذلك جعفر أغتم غماً شديداً وسفر إليه ينظر ما عنده فسأله أن يقسم ما أخذ من (حنفر)  فجمع القرمطي القبائل و العساكر ولقي السفير في أعظم زي من العدة والعدد، فلما عرفه السفير بما جاء به جمع العساكر وقال: "إن جعفر أرسل إلي لما بيني وبينه من العهد بقسمة ما غنمت وقد أحضرتكم شهوداً على تسليمه إليه لأني لا رغبه لي في المال إنما قمت لنصرة الإسلام" فشكروه على ذلك، ثم احضر المال فقسمه شطرين وسلم إلى السفير وقال: :انصرف إلى صاحبك ليلتك وقل له: يستعد لحربي" وكتب معه كتاباً إليه يذكره فيه أنه بلغني ما أنت عليه من ظلم المسلمين وأخذ أموال الناس "آنا قمت لأميت المظالم وأرد الحق إلى أهله، فإن أردت تمام ما بيني وبينك فرد الظلامات إلى أهلها وأدفع لأهل دلال دية ما قطعت من أيديهم".  وذلك أن جعفرا قطع أيدي ثلاثمائة رجل من أهل دلال على حجر بالمذيخرة[1] يقال أن أثر الدم على الحجر إلى اليوم، فلما كان العام المقبل خرج القرمطي بالجمع الكثير فدخل المعافر فأمر جعفر بلزوم نقيل بردان عند التعكر[2] وخرج في لقائه أكثر من ألف فارس فانهزم القرمطي مولياً إلى بلاد يافع فجمع جموعاً كثيرة ورجع لهزم جموع جعفر إلى المذيخرة فتتبعه جعفر بصاحب تهامة فأنجده بغسكر عظيم فطلع حتى صار في موضع يقال له الراهدة بناحية (عبهة) فلما سمع به القرمطي خرج إليه في جنح الليل فظفر به وقتل جعفراً في الحوالة بنحلة.  رجع الحديث إلى علي بن فضل القرمطي أنه لما قتل جعفراً أظهر كفره وادعى النبوة وأحل البنات والأخوات  ثم خرج يريد الحوالي, وخرج قبل ذلك إلى بلاد (يحصب)[5], فدخل (منكث)[6], فأحرقها, ثم خرج يريد الحوالي صاحب صنعاء, فلما بلغ بلد (عنس), وكان للحوالي مأمور في هران[7], فأرسل إليه القرمطي يدخل فيها هم عليه, فأجابه إلى ذلك, فنزل إليه, ودخل في ملته وقرمطته, وكان معه خمسمائة فارس رجع منهم إلى صنعاء إلى الحوالي مائة وخمسون وخرج القرمطي يريد صنعاء فلما سمع به الحوالي وبالجموع التي معه وعلم أنه لا طاقة له به خرج من صنعاء هارباً إلى الجوف فدخل القرمطي صنعاء فأقام فيها الفحشاء وأمر الناس بحلق رؤوسهم ثم التقى هو وصاحب مسور الحسن بن منصور ويقول إنما أنا سيف من أسيافك والمنصور يهابه ويخافه على نفسه لما يرى من شهامته وإقدامه فعزم على الخروج إلى مخالف (البياض) فنهاه المنصور وقال له قد ملكنا اليمن بأسره ولم يبقى إلا الأقل فعليك بالتأني و الوقوف في صنعاء سنة وأنا في (شبام) فيصلح واحد ما استفتح ثم بعد ذلك يكون لنا نظرة فإنك إن خرجت من صنعاء خالف أهلها وفسد علينا ما ملكناه فلم يقبل منه وقال لابد من الخروج واستفتح تهامة فخرج إلى مخاليف البياض وهي بلاد وعرة فلما توسط بينهم ومعه قدر ثلاثين ألفاً أحاطوا وقطعوا عليه الطرق ولم يقدر على التخلص فلما سمع المنصور خاف عليه وأغار إليه واستنقذه فرجع إلى شبام وعاد إلى صنعاء وخرج إلى جبال حضور ثم إلى احراز ثم إلى ملحان ونزل المهجم وقتل صاحبها هو إبراهيم بن علي رجل من عك[8] واستفتح الكدرى[9] ورجع إلى ملحان[10] وسرى بالليل إلى الزبيد وفيها المظفر بن حاج ومعه ستمائة فارس وهجم عليهم في أربعين ألفاً فاحاط بعسكره فقتل المظفر بن الحاج وكان المنصور مأموراً لصاحب بغداد وسبى القرمطي من زبيد أربعة آلاف عذراء ثم خرج منها إلى الملاحيط وأمر صائحه وعسكره يا جند الله يا جند الله فلما اجتمعوا إليه قال قد علمتم أنا مجاهدون وقد أخذتم من نساء الخصيب ما قد علمتم من نساء الحصيب تفتن الرجال فيشغلنكم عن الجهاد فليذبح كل رجل منكم ما في يده فسميت الملاحيط والمشاحيط لذلك قم رجع إلى المذيخرة دار مملكته وأمر بقطع الحج وقال: حجوا إلى الحرف واعتمروا إلى الثاني موضعان معروفان هنالك.  فلما أصبحت اليمن بيده وقتل الأضداد مثل المناخي وجعفر بن الكرندي والرؤساء وطرد بني (زياد) وكانوا رؤساء مخلاف جعفر ولم يبق له ضد يناوئه عطل المنصور وخلع عبيد بن الميمون الذي كان يدعوا إليه فيكتب إليه المنصور يعاتبه ويذكره ما كان من إحسان القداح وقيامه بأمرهما وما أخذ عليهما من العهد لأبنه فلم يلتفت إلى قوله وكتب إليه إنما هذه الدنيا شأن من ظفر بها افترسها ولى بأبي سعيد الجنابي أسوة لأنه خلع ميموناً وابنه ودعا إلى نفسه وأنا ادعوا إلى نفسي فما نزلت على حكمي ودخلت في طاعتي وإلا خرجت إليك وقد كان[11] سعيد الجنابي دخل مكة في ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة وقتل فيها ثلاثة عشر ألفاً وقطع الركن يوم النحر وهو القائل لعنه الله:  فلو كان هذا البيت لله ربنا \*\*\* لصب علينا النار من فوقنا صبا لأنا حججنا حجة جاهلية \*\*\* مجللة لم تبق شرقاً ولا غربا وأنا تركنا بين زمزم والصفا \*\*\* كتائب لا تنبغي سوى ربها ربا ولكن رب العرش جل جلاله \*\*\* لم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حجبا  في شعر طويل[12] وقد كان الخليفة ببغداد كتب إليه يذكر له ما فعل ويتوعده على ما استحل فأجابه أبو سعيد[13] القرمطي: (بسم الله الرحمن الرحيم والحمد الله رب العالمين والعاقبة للمتقين، من أبي الحسن الجنابي الداعي إلى تقوى الله القائم بأمر الله والآخذ بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قائد الإرجاس المسمى بولد العباس.  أما بعد: عرفك الله مراشد الأمور وجنبك التمسك بحبل الغرور\_ فأنه وصل كتابك بوعيد وتهديدك وذكرك ما وضعته من نظم كلامك ونمت به من فخامة أعظامك من التعلق بالأباطيل والإصغاء إلى فحش الأقاويل\_ من الذين يصدون عن السبيل فبشرهم بعذاب أليم على حين زوال دولتك ونفاذ منتهى طلبتك وتمكن أولياء الله من رقبتك وهجومهم على معاقل أوطانك صغراً وسبيهم حرمك قسراً وقتل مجموعتك صبر أولئك حزب الله إلا أن حزب الله هم المفلحون وجند الله هم الغالبون هذا قد خرج عليك الإمام المنتظر كالأسد الغضنفر في سرابيل الظفر متقلداً سيف الغضب مستغنياً عن نصر العرب لا يأخذه في الله لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم قد اكتنفه العز من حواليه وسارت الهيبة بين يديه وضربت الدولة عليه سرادقا والقت عليه قناعها بوائقها وانقشعت طخاء الظلمة ودجنة الضلالة وغاضت بحار الجهالة ليحق الحق ويبطل الباطل ولوكره المجرمون.  قال محمد بن مالك الحمادي رحمه الله تعالى يرجع الحديث إلى قصة صاحب مسور وعلي بن فضيل لعنهما الله تعال.  وذلك أن صاحب مسور لما علم أن على بن فضل غير تاركه لما ذكر في كتابه عمد إلى جبل مسور فحصنه واعد فيه جميع ما يحتاج إليه للحصار وقال لأصحابه إنى لأخاف هذا الطاغية ولقد تبين لي في وجهه الشر حيث واجهته في (شبام ) فلم يلبث علي بن فضل أن خرج لحرب المنصور واختار لحربة عشرة آلاف مقاتل من يافع ومذ حج وزبيد وعنس وقبائل العرب فدخل قرية (شبام) وخرج المنصور بلقائه ألف مقاتل إلى موضع يقال له المصانع من بلد حمير فضبطوا ذلك الجبل فزحف إليهم فاقتتلوا من أول النهار إلى الليل فخرج علي بن فضل على طريق العصد ودخل ( لاعة) مصعد إلى جبل الجميمة مقاتلا للمنصور فضرب فيها مضاربه ورجع إلى أصحاب حضور المصانع[14] فلزموا بيت ربيته وضبطوا الجبل فأقسم ألا يبرح حتى يستنزل المنصور فحاصرة ثمانية أشهر وقيل أن المنصور حمل من سوق طمام خمسمائة حمل ملح قبل وصول علي بن فضل وعق له في الجبل عقا واسع في موضع كثير التراب وأوقدوا فوقه الحطب أياما حتى استملح الجبل فصار ملحا كله ثم نقله إلى الخزائن ثم إن علي ابن فضل مل المقام فلما علم منه المنصور ذلك دس عليه أمر الصلح فقال لست ابرح وقد علم أهل اليمن قصدي لمحاصرته إلا أن يرسل إلى بعض ولده فيكون ذلك لي مخرجا عند الناس ويعلمون انه قد دخل في طاعتي فأرسل إليه ولده ودفعه بالتي هي أحسن فرجع إلى (مذيخرة)فأقام عنده ولد المنصور سنه ثم ردة إلي أبيه وبرة وطوقه بطوق من الذهب ثم أقام بمذيخرة يحل الحرمات وير تكب الفواحش (15) ويقال إن أيامه كانت سبع عشر سنة ومات مسموماً سنة ثلاثة وثلاثمائة. وكان سبب موته أن رجلاً من أهل بغداد يقال أنه شريف وصل إلى الأمير أسعد بن أبي[16] يعفر الحوالي وكان في ذلك الوقت هارباً من القرمطي في الجوف من بلد همدان مستجيراً ببني الدعام وأن ذلك البغدادي وهب نفسه لله وللإسلام وقال الأمير تعاهدني وأعاهدك أني ‘ذا قتلت القرمطي كنت معك شريكاً فيما يصل إليك فعاهده على ذلك وكان طبيباً حاذقاً فخرج فكان مع كبار أهل دولة القرمطي يفتح لهم العروق ويسقيهم الدواء ويعطيهم المعجونات حتى وصفوه للقرمطي بالحذق بالطب وفتح العروق وقالوا أن مثلك لا يستغني أن يكون في حضرة مثلة ثم إنه احتاج إلى إخراج الدم فأمره أن يفصده فعمد إلى السم فجعله على شعر رأسه فدخل على القرمطي فسلم عليه فأمره أن ينزع ثيابه ويلبس غيرها ثم أخرج المبضع ثم مصه وعلي بن فضل ينظر إليه ثم مسحه برأسه فتعلق به من السم حاجته ثم فصده وخرج من ساعته فركب دابته وخرج هارباً فلما أحس عدو الله بالموت أمر بقتل الطبيب فلم يوجد فلحقوا به دون(نقيل صيد)[17] بإزاء قينان[18] فقتلوه هناك رحمه الله تعالى ومات القرمطي لا رحمه الله.  وولى الأمر من بعده ولده فأفأ وشاع موته في الناس ووصل إلى الحوالي جماعة من رؤساء الناس بنو المحابي والأنبوع وغيرهم فزحف بالعسكر الغليظ لحرب القرامطة فدخل الدعكر[19] ثم تقدم إلى جبل التومار فحاصر القرامطة فدخل الدعكر ثم تقدم إلى جبل التومار فحاصر القرامطة وسلط الله سبحانه وتعالى عليهم سيف النقمة لا يخرج لهم جمع إلا هزموا أو قتلوا وأيد أ سبحانه وتعالى المسلمين بنصره.  قال تعالى:(إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ, وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ). فأقام يحاصر القرامطة سنة ويقال إن من شدة عزمه وحزمه وتقصيه أنه ما حل عدته ولا سلاحه بل يصلي وعليه عدته وسلاحه حتى فتح الله عليه وقتل القرامطة وأحيا الإسلام. ليس كولاة الأمر من أهل زماننا الذين غرقوا في الملذات واتبعوا الشهوات ولم يرغبوا في المكارم والنجدات وعظوا فلم يتعظوا وناموا فلم يستيقظوا ونظروا ما حل بغيرهم فلم يعتبروا.  ومن عجز عن رعاية رعيته وجار عليها في حكمه وقضيته، ودل على زوال مملكته وتعجيل منيته.  وإذا فرط الراعي في أمر رعيته وطاوع نفسه الدنيه، وذهب عنه الآنفة والحمية فقد عظمت عليه البلية.  الحرب مع سعيد الأحول النجاحي رجع الحديث إلى محاصرة الأمير الحوالي فروي أنه نصب المنجنيقات فهدم الذخيرة بعد سنة ودخل على القرامطة فقتلهم وأخذ من الغنائم مالا يحصى وسبى بنات القرمطي وكن ثلاثا فصار اثنتين في رعين وواحدة وهبها الأمير لابن أخيه قحطان أباد الله القرامطة على يد الأمير الحوالي بمنة وسعادته، وجعل لا يسمع بأحد منهم إلا قتله، ورجع إلى صنعاء وقد أطفأ جمرة الشك وملك جميع البلاد وزالت الفتنة وأراح الله من القرامطة وطهر منهم البلاد وأمن منهم العباد، وسار الأمير في الناس بأحسن سيرة وعدل في الرعية ورد بني المحابي إلى مخلاف جعفر، وجرت المكاتبة بين الأمير الحوالي والأمير إبراهيم بن زياد[20] والناصر أحمد بن يحي الإمام الهادي صاحب صعده[21] وتعاقدوا على المعاضدة والمناصرة وقتل القرامطة حيث ما وجدوا. وذكروا أنه كان يوجد عنوان كنتم بركة في بركه ونعمة مشتركة والأرض فيما بيننا قد حصلت في شبكة وكان الخارج إذا خرج من بلد أحدكم لذنب أذنبه كاتب فيه وسأل الصفح عنه. وصفت لهم المعيشة واستقامت لهم الدولة ولزم كل واحد منهم بلده ولم يطمع واحد على صاحبه. ألف الله بين قلوب المسلمين ولم يبق من القرامطه إلا شرذمة قليلة من أولاد المنصور في ناحية مسور وأبادهم الله تعالى على يد الدعام بن إبراهيم والناصر بن يحيى وأنا أذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.  واستخلف الحواليون على مذهبهم رجلا يقال له سليمان [3] عبد الله الزواحي من حمير من ضلع شبام من موضع يقال له الحفن فأقام يدعوا إلى الحاكم وإلى المستنصر وكان كثير المال عظيم الجاه فاستمال الرعاع والطغام إلى مذهبه وكان في أيامه قد شهر نفسه بالمبايعة للفاطميين في مصر من بني عبيد بن ميمون القداح وقد كان عرف بذلك ونسب إليه فكل ما هم به المسلمون من حمير وشبام وما حوله من القبائل دفعهم بالجميل وقال لهم أنا رجل مسلم فكيف يحل لكم قتلي فينتهون عنه. |  |  | http://www.yemen-nic.info/timp/images/nicth_37.jpg |
|  | | |

قيام الدولة الصليحية الفاطمية في اليمن  
  
كانت اليمن في القرنين الرابع والخامس الهجريين في حالة من التدهور والتفكك, ففي خلال تلك المدة استولى " الموالي" على الأقاليم اليمنية, واستبدوا بالحكم, وعاثوا فساداً وظلماً, بالرغم من أن " الحسين بن سلامة" تمكن في مدة ولايته من الحفاظ على دولة "بني زياد" فإن استبدا "الموالي الحبشيين " بالحكم مكنهم من تأسيس الدولة "الناحية" في "زبيد" سنة 412هـ. على أنقاض دولة "بني زياد" فكانت لهم "تهامة" و "وزبيد", وكان استيلاؤهم على تلك الأمكنة من الأسباب التي حفّزت العرب إلى الانتقاض وعدم الخضوع لدولة الأحباش, فكان من جراء ذلك أن تقطعت أوصال البلاد بعد موت "الحسين بن سلامة" وأصبحت كل منطقة تخضع لنفوذ أمير من الأمراء وعمت الفوضى المناطق وأعلن العصيان في القلاع والحصون, والاستقلال في المناطق والأقاليم, فكان" مخلاف جعفر" يضم: " جبلة" و" إب" و العدين" و " المذيخرة" و " ذي سفال". و " مخلاف المعافر" يضم: " تعز" و" جبا" وغيرهما, "ومخلاف الجند وحصن السمدان" لآل " الكر ندى", وكانت لهم "مكارم" و"مغافر" وسلطنة "ظاهرة", أما "عدن" و"أبين" و"لحج" و "حضرموت" و" الشحر" فقد استولى عليها " بنو معن" سنة412هـ. وتغلب "أسعد بن وائل" على "مخلاف" و "حاظه" ومن مدنه: " شاطح", وامتلك " بنو عبد الواحد" "مخلاف يربوع" وأهم مدنه " الغمد" وبرع" وحصن "مسار ", واستولى " بنو اصبح" على حصون "حب" و"الشحر" و"السحول" ثم استولى على حصن "وصاب" ومخاليفها كانوا قوم من قبيلة "بكيل" ثم من "همدان".   
من هذا نرى أن اليمن لم تكن فيها وحدة سياسية تجمع شملها تحت لواء واحد, بل كانت إمارات صغيرة متفرقة يأكل القوي منها الضعيف, أو بلغة أصح قل: أن السلطة كانت موزعه بين الأمراء والزعماء والمتباغضين المتنافرين, وجميعهم لم يكن يربطهم ببغداد إلا رباط إقامة الخطبة للخلافة العباسية, وضرب السكة باسمهم وإعلان الولاء له ولو بالظاهر.   
هذا ... ومن الجدير بالذكر أنه من سنة405هـ إلى سنة448هـ عم الخراب "صنعاء" وغيرها من مدن وبلدان اليمن بسبب الخلافات والنزاع والظلم وفساد الأحوال, وتولى على العاصمة "صنعاء" الدمار وقل الخير, وضعفت المدينة حتى قيل أن دورها أصبح عددها ألفاً بعد أن كان مائة ألف.   
في هذا الجو المكفهر الحالك المضطرب... وفي تلك الأحوال السياسية المتقلبة ظهر على مسرح اليمن " الداعي /علي بن محمد الصليحي قدس الله روحه في الجنة" رأس الأسرة الصليحية التي تنتسب إلى قبيلة "الأصلوح" من بلاد "حراز" وكان " الداعي /علي محمد الصليحي" قدس الله روحه في الجنة ، كما وصفه "ابن الجوزي" في كتابه " مرآة الزمان":   
" شاباً أشقر اللحية. أزرق العينين... وليس في اليمن في ذلك الوقت من يماثله في ذلك".   
نشأ" الداعي /علي الصليحي نشأة طيبة...في بيئة عربية عريقة, لها تقاليدها في الأخلاق الفاضلة والعادات الطيبة السمحة... وقد ظهرت عليه مخائل النجابة, ودلائل الفضل والعزة وطموح النفس. ويروي أنه قام يحج بالناس على طريق "السراة" و"الطائف" خمسة عشر عاماً, وكان الناس في أول ظهوره يقولون له:   
" قد بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره ويكون لك شأن ودولة".   
إن أولى فتوحات الدعي/ علي الصليحي كانت استيلاءه على بلدة "زبيد" وفي تلك الفترة تقدم لخطبة ابنة عمه السيدة الحرة " أسماء بنت شهاب" الصليحية, وتم زواجه به.

ونعود إلى ما قبل هذا فنقول:   
لما انتقلت رئاسة الدعوة الفاطمية في اليمن إلى " الداعي /سليمان ابن عبد الله الزواحي قدس الله روحه" شرع يلاطف ويجالس القاضي "محمد الصليحي" والد " الداعي علي الصليحي قدس الله روحه" فكان يكثر من الترداد عليه بالنظر لرئاستــــــــــه وسؤدده وصلاحه وعلمه, وكان كلما ذهب إليه يرى ولده "علياً" فيشــــــاهد على محياه دلائل النجابة والذكاء والشجاعة, فغرس فيه, وهو دون البلوغ التعاليم الفاطمية وما زال حتى استماله وجعل في قلبه العلوم والآداب والتفاني في المبادىء الفاطمية.   
ولما اطمأن " ا لداعي سليمان الزواحي قدس الله روحه" لرســــــوخ تعاليمــــه في فكر تلميذه " الداعي /علي الصليحي أوصى له بخـــلافته واستحصل لذلك على موافقة الإمام الفاطمي في مصر " المستنصر بالله وبهذا تمكن " داعي الإمام الزواحي" من إحراز أكبر نصر باهر بضمه إلى صفوف دعوته شاباً من خيرة شباب اليمن رجولة وغيرة وعلماً.   
أجل...تمكن الداعي الفاطمي "سليمان الزواحي قدس الله روحه" بمــــا أوتي من قدرة ولباقة وسعة علم, وطلاوة في الحديث من استقطاب " الداعي /علي الصليحي قدس الله روحه" وإقناعه بضرورة الانتساب إلى الدعوة الفاطميــة ولم يلاق صعـــوبة في ذلك لأن علي ومنذ المرة الأولى أبدى رغبة صادقة وأظهر نية حسنة واستهــوته المبادىء التي اعتنقها أستاذه وبذل كل شيء في سبيل دراســــــــــــة هذه المبادىء والتفوق في فهـمها... أما سليمان فقد أوصى له بمبلغ كبير من المال إضافة إلى الوكالة العامة التي تعطيه صلاحية الاستمرار والبقاء في رئاسة الدعوة.   
ويقول المؤرخ "عمارة اليمني":   
فأصبح " الداعي علي الصليحي عالماً فقيهاً في الفلسفة, مستبصراً في علم التأويل وقد أدت معارفه إلى أن ينهج نهجاً جديداً, وأن يســـــلك طريقاً يختلف عن طرق من سبقه من الدعاة الذين تولوا شؤون الدعوة في اليمن, وهــكذا اتخذ بادىء ذي بدء ميدان الحج حقلاً لغرس مبادئه وتنميتها, وصار يحج بالناس عن طريق " السراة والطائف"نحواً من خمسة عشر سنة...فسار ذكره في البلاد على لسان الخاصـــــــــة والعامة.   
ومما يجب ذكره: أن هذه المدة الطويلة التي مـــــــرت بين موت "الزواحي" إلى حين قيام "الصليحي" قدس الله أرواحهم ، بثورته في "مسار" تقرب من الخمســـــــة عشر عاماً, وعلى الأرجح أنها كانت كافية لصقل "علي" وإنماء معارفه وتجاربه, وتكوين جماعة تدين له بالطاعة والاحترام والإخلاص.   
ولا يخفى على العقلاء أن يراعون دائماً جانب العامة، فهم الســــــــواد الأعظم في كل مجتمع، ولهذا كان من الواجب على كل من له زعامةً أن يحسب لهــم حساباً، ويتقرب إليهم بما يرضيهم، ولما كان الدين هو جامعتهم الكبرى ، ومن أكبر أسباب سعادتهم ، بما أن الداعي / على الصليحي قدس الله روحه ، يمثل الدولة الفاطمية الإسلامـــــــية وبالمثل العليا لها ، فلم يكن يصارح أحداً إلا من يثق بإخلاصه وبعد أن يختبره ، ولم يجعل مبادىء دعوة وفقاً على الأمراء وعلية القوم وأصحاب المصالح ، لأنه كان يعلم تمام العــــالم أن هؤلاء سيعــــلنون الحــــرب عليه ، وكان أن وجه اهتمامه إلى العامة والمتحمسين للدين وللسواد الأعظم من الرعية الذين بواسطتهم تجبى الأموال ، ومنهم يتألف الجيش فنفذ إلى صفوفهم وكسب ثقتهم وجذب قلوبهم ، وغرس في صــــدورهم الدين ... وحده... فليس يسيطر على العقول في تلك العصور سوى الدين... وإذ اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة وخاصة في مجتمع عرف عن عامة أهله شدة تمسكهم بأهداب الدين ومحا فظتهم على التراث القديم.   
أجل... عرفَ الداعي /على الصليحي هذا كله، وعرف أيضاً أنه لابد له من التطلع إلى آماله من زاوية خاصة، فدأب على تحقيق طموحه بصبر وتؤدة، وهو يعلم أن هذه الخطة كفيلة بنجاحه وتحقيق أغراضه، وجاء موسم الحج في سنـــــة 438هـ. وهذا العام كان بمثابة عهد جديد في إنجاح حركة الصليحي حيث بايعه ستون رجلاً من قبيلة " همدان " وعاهدوه على الطاعة والموت، وعلم كل واحد منهم أنــه جندي يبيع نفسه بيع السماح عندما تأزف الســـــــاعة الرهيبة، وتظافرت القوى على نصرة دعــــــــوة آل بيت النبوة بالأنفس والمال، ويعتبر كل هذا نصراً أكيداً للدعوة الفاطمية، وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه إنما كانوا في عزة ومنعة من قبائلهم، وكل هذا لا يتعارض مع ما ذكرناه من اعتماد " الداعي / علي الصليحي قدس الله روحه "على الفئة العامة وبخاصة أن أكثرهــم كانوا من قبيلة "همدان" القويــــــة العزيزة والتي كان لها دوراً كبيراً مع أمير المؤمنين "على أبن أبي طالب " عليــــــه الســــــلام، وهذه القبيلة بلغة شأواً بعيداً في اليمن ، وهابتها جميع القبائل وحسبت لها حساباً ، وقد كان هذا الانضمام عاملاً كبيراً ومشجعاً لمن كان متردداً من المستجيبين ، وباعثاً للكثيرين من القبائل الأخرى على الانضواء تحت لواء الدعوة الفاطمية وهنا نستطيع أن نقول :   
أن " الداعي/ على الصليحي بعد أن وصـــل إلى هذه النتيجة، وبعد إحرازه هذا النصر الأكيد تمكن من تكوين جماعة مخلصة وإن تكن قليلة العدد، وقد أصبحت فيما بعد نواة لقوة كبيرة فكان أول عمل قام به هو استيلاؤه على حصن "مسار" وتعميره وجعله مركزاً لدعوته وقاعدة لحروبه، ولكن هذا المشروع كان يقتضي الحيطة والاستعداد، ولهذا أخذ يعد عدت الثورة، ويهيىء لها الســــــلاح والرجال والعدة وساعدته الظروف إلى حد كبير وهكذا تمكن من تكوين جيشـــــه من بطون "همدان" الذين اقتنعوا بصدق الوعد الذي بشروا به، واســــــــتقر في قلوبهم أن مواجهة الصعاب تقتضي الشجاعة والإقدام والإيمان بالله وبطاعة "الإمام المستنصر بالله عليه السلام" الذي ما فتأ يعدهم بالنصر الأكيد.

وبذل" الداعي /على الصليحي وأصحابه جهداً كبيراً في سبيل جمع الكلمة وتوحيد الهدف , فتمكن بفضل ما أوتيه من القوة والذكاء من التغلب على كل ما اعترضه , وأخيراً جعل أتباعه يعتقدون أنهم إنما يحاربون إعلاء لكلمــــة الله , وليس لأمر من أمور الدنيا, وهكذا كتب له التوفيق, وكان في الوقت ذاته على اتصال بخليفة مصر الفاطمي " الإمام المستنصر بالله عليه السلام " يطلعه على كل شاردة وواردة , وأخذ رأي المخلصين من أعوانه, وعاهدهم على الوفاء بتطبيق سنن العدالة, وفي هذه الفترة البدائية من عمر دولته تمكن من عقد اتفاق مع "الهمدانيين" يقضي بأن يصلوا إليه في يوم معلوم.   
وعندما شاع الخبر في أرجاء اليمن بأنه يستعد للثورة والقتال , وبأنه ينتظر وصول مساعدات وتوجيهات الإمام الفاطمي "المستنصر بالله عليه الســــــلام" ازدادت نقمة الاعداء عليه وعلى أتباعه, فوثب "ابن جهور" صاحب " لهاب في حراز" على أتباع علي المقيمين في ناحيته فأصلاهم ناراً حامية وأسر القاضي الفاطمي "لمك بن مالك" وعدداً كبيراً من قومه , فضاق الأمــر على " الداعي /على الصليحي قدس الله روحه" وكتب إلى " الأمام المستنصر بالله عليه السلام" يطلب إليه الموافقة على القتال , وكان يعتقد أنه لا يمكن أن يعارض الفكرة بحال من الأحوال لاسيما وان الدعوة لابد لها من تضحية وبذل دماء , وعندما وافته الموافقـة أرسل إلى أتباعـــــــه اينما كانوا في اليمن يحثهم على القدوم إليه , وأخذ من جهة ثانية يبتاع العدة والعدد , فخف لمقابلتـــــه كبار أهل الدعوة في نواحي "حراز" وكلهم يستعد لخوض المعركـــة, كما وافاه من اراضي   
" يام " من همدان ونواحي صنعاء وبقاع حمير , وبعد أن تم حضورهم أطلعهم على خطته وأخبرهم بعزمه على احتلال حصن " مسار " وما يجاوزه... وتدفقت في هذه الأثناء الأموال والمساعدات والغرض منها تمويل الثورة وشراء الأسلحة.   
ولما تمت الاستعدادات والتجهيزات أرسل أربعين رجلاً من " هوا زن " وأمرهــم أن يسيروا إلى "مسار " وان يلزموا ذروة الجبل , ثم يولوا وجوههم بعد ذلك شطر "صعفان " , بعد أن علم أن أهل " مسار" قد تأهبوا لقتالـــــه وحصنوه من كل جهــة , وقد علـم " الداعي/ علــى الصليحي ذلك عن طريق بعض أعوانــه الذين تسللوا إلى قمة " مسار " ووقفوا على استعدادات الأعداء , وهنا رســم خطته فداهم الجبل المنيع واستولى على قمته وهي من أهم المواقع الحربية في اليمن.   
وفي سنة439هـ تقدم في سيره فوصل إلى " عبرى سهام " وهناك طمع أهل " مسار" في محاربته في هذا المكان .... ولكنهم لم يتمكنوا ... فاتجهوا إلى قمة الجبل للاعتصام فيها , فوجدوا أهل " هوا زن " قد ملكوها , فاضطروا إلى الهرب , فصعد   
" الداعي /على الصليحي قدس الله روحه " وأتم احتلاله للجبل, ونشر الأعلامالفاطمية في كل مـــكان دون أن يواجه أية مقاومة ولكن لم ينتصف ذلك اليوم حتى أحاط بـــــه عشرون ألف محارب جاءوا مــن مختلف الجهات وأنحاء البلاد لقتالــه, وطلبوا إليــه النزول , وهنا تجلت حكمته ومرونته وبعد نظره بالأمور والسياسة.... فقال لهم :   
إنني لم أقدم على هذا الأمر إلا لكي أحرس لكــم الجبل خوفاً من أن تأتي قوة خارجيــة فتستولي عليه ,والآن فإن شئتم نزلنا وتركناه وإن شئتم كنا له الحراس الأمناء ... فقنع الرجال المحاربون وفوضوا إليه المحافظة عليه وانصرفوا عنه... وفي تلك الأثناء عادت رسله من مصر حاملين أوامر الخليفة " الإمام المستنصر بالله عليه السلام" بإعلان دولة الفاطمية في اليمن... فقرأ الكتاب على أتباعه, وأخذ نفوذه يزداد... وبدأت الأموال والمساعدات ترد إليه من جميع الجهات , وهذا ما جعله يقوم بعمارة " مسار " ويجعل له الدروب والبيوت

ومما لا ريب فيه أن ازدياد نفوذ" الداعي /على الصليحي وانتشار أمره بهذه السرعة استفز جماعة من زعماء اليمن , فأعلنوا خوفهم من تلك الانتصارات التي يحرزها "الصليحي في كل يوم, فقام " جعفر بن القاسم بن علي العياني" صاحب " صعدة" في جمع كبير من أصحابه وهاجم حصن " الأخر وج " وقاتل أهله , وكان عليه " الحسين بن المهلهل" من أصحاب الداعي / على الصليحي " وجماعة من " حمدان " و " بني شهاب" , وانتهز هذه الفرصة أيضاً " جعفر بن العباس الشاوري " صاحب مغارب اليمن الأعلى , فقام على رأس جيش كثيف من " حراز وكرار" وغيرهما وقصد " عبرى " أسفل جبل "مسار" وأراد الصعود إليه , فنزل أنصار الصليحي يدافعون عن بقائهم وعن نصرة مبادئهم, لأن الانتصار معناه البقاء لدولتهم الفتية , وأما الهزيمة فمعناها الفناء التام والقضاء المبرم.   
ولما تكاثر القوم على جيش " الصليحي" خشي الهزيمة . وما يترتب عليها من سوء العاقبة , فنزل بنفسه, ومن بقي معه من القوى الاحتياطية . واستمد من الحرج قوة, فشد بذلك من عزم أتباعه , وحمى وطيس القتال , وأخيراً ربح الجولة ’ أما جيش "ابن عباس" فقد لاذ بالفرار مغلوب على أمره , ولاكن ما لبث أن عاد ثانية بقوة أكثر عدداً, وكان يطمع في النصر هذه المرة أيضاً , ولكن تدابير " الداعي / على الصليحي القتالية مكنته من السيطرة على الموقف وقتل " ابن عباس " وأكثر من معه من الأتباع... وغنم " الصليحي " وأصحابه الكثير من السلاح والعدة والأمتعة , فقوي بذلك مركزهم وازداد نفوذهم, وارتفعت روحهم المعنوية وخافهم من كان يترقب من القبائل نتيجة لهذه المعركة , وفي هذه الفترة اضطر الشريف " جعفر بن القاسم " عند سماعه بالأنباء أن يترك حصن " الأخر وج" وينجوا بنفسه , وكانت هذه التجربة اختباراً لقوة الصليحيين وتعاونهم وتمسكهم بمبادئهم, كما أن شخص الصليحي وحسن بلائه في تأييد أمره أسكن النفوس الغضبى , فسار بالأمر قدماً واستولى على " حضور " وأخذ حصن " بتاح " وهنا خاف أهل " حراز " النزال فقرروا الدخول في طاعته إلا " ابن جهور " فقد صمم على الاستمرار في المكابرة واعتصم في حصن " لهاب" ولكن الصليحي كلف القائد الفاطمي " عامر بن سليمان الزواحي" فصعد إلى جبل " شبام وبيت عناد" ومعه جماعة من بني " قليد و هو ازن وبني الهجري" ثم وصل "أحمد بن المظفر الصليحي " وجماعة من الحجازيين \_ وفيهم عباس بن المكرم \_ فعمروا داراً في قمة جبل " شبام" كما عمروا جبل بيت "عناد" استعداداً لمقاومة " ابن جهور " وبعد أن تحصنوا في هذه الناحية , اتجه جيش " الداعي/ على الصليحي لمحاربة " ابن جهور" في " لهاب" فضيقوا عليه الحصار , وفكوا أسر جماعة كبيرة من أصحابهم ومنهم القاضي " لمك بن مالك" ولكن " ابن جهور" استمر في عناده, وتمكن من أن يؤثر على أتباعه ويقنعهم في الاستمرار في المقاومة , ولما ضعف جيشه, ورأى أن مصيره إلى الهلاك,استعان " بنجاح" في "زبيد" وكانت علاقته مع" الداعي الصليحي حسنة , فتوسط بالصلح , ولكن وساطته لم تثمر , وكان أن تمادى " ابن جهور" في بغيه , فاضطر" الداعي/ الصليحي إلى محاصرة حصن " زبار " حتى سقط , وهنا رضخ " ابن جهور" وسلم نفسه إليه مكرهاً في " مسار" فأنزله" الداعي الصليحي" في ضيافته وأحسن إليه . ويدل تسامح" الداعي /على الصليحي مع عدوه على نبله وعراقته وطيب محتده, فقد كان من المفروض والمنتظر أن يأمر بقتل " ابن جهور " الذي تسبب في إقلاق راحة الصليحيين مدة من الزمن حتى استمات في سبيل الوصول إلى النصر وتحريض الحانقين والناقمين عليهم.   
بالرغم من هذا كله وجد" الداعي الصليحي أن المعاملة الحسنة أجدى وأنفع في مثل هذه المواقف , وآثر أن يكسب ثقة الناس بالمزيد من أعمال الخير, وقد تحققت سياسته تلك فانقسمت منطقة " لهاب" فيما بينهم إلى فريقين : فريق انضم للصليحيين وقدم إليه المساعدات المالية , وفريق استمر في عداوته مما جعل"الداعي الصليحي" يرد كيدهم إلى نحورهم ويجتذب إليه الفريقين أخيراً, ولم يتوقف عند هذا الحد , بل نزل إلى "عبرى دعاس" وعقد مؤتمراً من جميع أهل " حراز" حذرهم فيه من الخلاف عليه والشقاق, وأعلن بدء قيام الدولة الفاطمية , كما وعدهم بحسن السياسة والقيام بالمحافظة على الشرع.

وبدأ"الداعي / على الصليحي " حكمه على الأسس التي أعلنها وتقدم في تنفيذ سياسته المرسومة بخطى حازمة سريعة وكان من ضمنها إتباع سياســـــة المهادنة إزاء أمراء اليمن وأصحاب الدويلات المجاورة - إذا نفعت هذه السياسة - و إلا فليس أمامهم إلا الحرب وإخضاعهم بالقوة , ولما ملك" الداعي /على الصليـــحي جبال " حراز" وما يجاورها , خشي ملوك " تهامة" أيضاً بأسه الشديد , وتملكـــه الحصون والبلاد , وخاصـــة حصن "حضور" وما يجاورها , وهنا بدأت التقولات والإشاعات... وكان لا بد له من مهادنة "أبي حاشد" صاحب " صنعاء" كمــا هادن أباه "يحي بن إبراهيم الصحارى" من قبل , فلما توفي يحيى سنة440هـ أرسل "الداعي / على الصليحي قدس الله روحه" بعض أصحابه وبني عمـــــــــــه إلى "صنعاء" لتعزيته في أبيه والإحسان إليه , ولكن " أبا حاشد" اعتبر تطلعات الصليحي هذه تدخلاً في أموره فساءت العلاقة بينهما أخيراً مما أدى إلى قيام حرب   
بين الفريقين... وقد انتهت تلك الحرب بمقتل صاحب "صنعاء" واستيلاء " الداعي/ على الصليحي "عليها وبوصوله إلى هذه المرحلة أقبل الناس علـى خطب وده والانضواء تحت رايته والدخول في طاعته.   
ومهما يكن من أمر   
فإن الإمام الزيدي " الناصر الديلمي" وكان قد وصل من "الديلم" إلى اليمن سنــــة   
437هـ لإعلان المذهب الزيدي, فانضمت إليه قبائل كثيرة في "صعدة" ومنها سار إلى "صنعاء" وملكها, فطرده " يحيى بن أبي حاشد" والشريف " جعفر بن الإمام منصور العياني" فعاد إلى "ذي أبين".   
أما "الناصر " فقد أعتبر استيلاء " الداعي علي الصليحي "على " صنعاء" يشكل تهديداً له ولغيره من زعماء اليمن, فكان أن اتصل "بنجاح" صاحب "تهامة" وطلب منه إخراج الصليحي من "صنعاء" وهذه البادرة التي ظهرت من "الناصر" كانت مدعاة لغضب الداعي / على الصليحي, فسير إلية جيشاَ حاربه ثم قتله أخيراَ في موقع " نجد الجاح " ببلاد "رداح" .   
وفي هذا العام ثار بعض الهمدانيون وهم أكبر القبائل التي دانت للصليحيين, وفكروا بخلع طاعتهم, والخروج على حكمهم, بالرغم من أن الصليحي لا يسير فيهم إلا سيرة الحق والعدل, فاتصلوا بالشريف" القاسم بن جعفر بن الإمام منصور العياني" واستنهضوه وأتباعه فاستجاب لطلبهم , وخرجوا جميعاَ سنة 448 هـ لغزو الصليحي , فتقابل الجمعان بالقرب من قرية " الهرابة" ببلاد " حاشد فردهم " الداعي / على الصليحي , وحاصر الشريف ومن معه بأحد الحصون , ونصب علية المنجنيق لكن أتباع الشريف دافعو دفاع الأبطال ومات أكثرهم لنفاذ المؤونة وعند ذالك اضطر الشريف إلى أن يسلم نفسه للصليحي فأكرمه وخلع عليه,ولم تكن سياسة الصفح التي اتبعها الصليحي في هذه المرة سياسة هوادة أو تردد,بل قصد منها تسكين الثارات , لأن في تسكينها الأمن و الخير والسعادة والاستقرار لليمن واليمنيين .   
وتمشياَ على هذه السياسة القائمة على المهادنة والملاطفة كان " الداعي / على الصليحي " يلاطف القائد"نجاح " صاحب الدولة الحبشية في " زبيد ـ تهامة " التي حملت لواء الدعوة الإسلامية السنية في اليمن بعد دولة" بني زياد " ولكنه كان يدرك أن دولته الفاطمية الفتية لا يمكن أن يكون لها شخصية معنوية قوية وكيان متين إلا إذا قضا على أكبر منافسيه وهو " نجاح" وكان الصليحي يلاطفه حتى قوي مركزه ودانت له معظم الجزيرة اليمنية , ثم بدأت العلاقات تتوتر بين الطرفين بفضل مساعي الإمام الزيدي "أبي الفتح " صاحب "زبيد" فحلت الوحشة بعد الأنس والجفاء بعد حسن الصلة, فأرسل "نجاح " جيشاً كثيفاً لمحاربة الصليحي والتقى الفريقان في خلف صعفان في "الجنة" المتصلة "بتهامة" ودارت بين الفريقين معارك طاحنة ومصادمات عديدة, وكانت الكرة الأخيرة للصليحي وجيشه من العرب على جمع الأحباش.   
ويذكر التاريخ :   
إن الأحباش عادوا فاجتمعوا سنة 450هـ في "ابن طرف " وكان معهم جميع أمراء الأحباش وكان جيشهم يتألف من عشرين ألفاً , فسار إليهم "الصليحي" في ألفين وسبعمائة فارس وهنالك التقى الجمعان "بالزرائب" فدارت الدائرة على الأحباش , ولم يسلم منهم إلا ألف لجأوا إلى جبل "يعرف" "بالعكوتين" فوق مدينة "الزرائب".   
وفي سنة 452هـ مات "نجاح" " بالكد راء". ومن الأقاويل التي تروى أن الصليحي هو الذي دبر قتله, على يد جارية حسناء كان قد أهداها إليه فيما مضى لتحقيق هذا الغرض... على أن أكثر المؤرخين يؤكدون أن موت "نجاح" كان طبيعياً, ولكن هذا الموت لم يكن حداً فاصلاً بين الطرفين ,بل على العكس كان بداية لعهد نزاع طويل بين الصليحيين والنجاحيين ,فقد تسلم الزعامة بعد "نجاح" ولده "سعيد" ولكن "الدعي / على الصليحي أظهر براعته العسكرية بتأجيل أمر النجاحيين , وقرر أن يقضي أولاً على الفوضى الضاربة أطنابها في الدويلات في اليمن الأسفل , وبعدئذ يتجه إلى عدوه الرئيسي,وكل هذا حتى لا تشغله جبهة أخرى في داخل البلاد وفي هذا تتجلى حكمته ورأيه السديد, فزار "مسار" و"صنعاء.

فزار "مسار" و"صنعاء" زيارة قصيرة ثم قصد بجيوشه اليمن الأسفل, واستولى عنوة على جبل "صبر " وعلى بلاد "بني الكرندي" وملوك "المعافر " وحصن "الدماة" كما استولى على بلاد "الحسين التبعي" صاحب حصن "حب" و"بعدان" و"السحول" و"الشواني" , ودخل "الجند وهي يومئذ مدينة اليمن الأولى , ولم يكن في اليمن أشهر منها , ومن مدينة "صنعاء" منذ الجاهلية حتى عهد الداعي / على الصليحي ,ثم سار إلى "عون" واستولى على بلاد "بني معن" الذين كانوا يملكون "عون " ثم هادنهم أخيراً وسلم إليهم بلادهم بعد أن بذلوا له السلم وأعلنوا الخضوع له والائتمان بأمره.   
ثم قصد بعد ذلك "تهامة" وسار إلى "زبيد" وافتتحها واحتل "التهائم" كلها وطرد منها أولاد "نجاح" الذين فروا إلى جزيرة "دهلك " في البحر الأحمر, واستقروا فيها ويذكر التاريخ:   
إنه بعد هذه الفتوحات سار في الناس بالعفو والصفح ورفع السيف, وبسط العدل, ولاذت به العرب ولا سيما في بلاد "تهامة" حيث كان العبيد يتحكمون بهم ويستطيلون عليهم أيام القائد "نجاح".   
وهكذا طوى " الداعي / علي الصليحي بلاد اليمن طيا وأرضخها جميعاً لنفوذه وسلطانه, وافتتح كل ما كان مغلقاً في وجهه, فلم يأتي عام 454هـ. إلى وقد ملك الأقطار اليمنية كافة قلاعها وحصونها ومدنها وسهولها وجبالها وأمتد نفوذه من "مكة" حتى "حضرموت" وتمنعت عليها " صعدة" بعض التمنع, ولكنه مالبث أن قتل " القائم " وملكها وبذلك تمت أمور الدولة وأستقرة وتوحدة كلمة اليمن وجعل الداعي / على الصليحي "صنعاء" عاصمة لدولته وبني فيها عدة قصور , وأسكن معه جميع ملوك وأمراء اليمن تحت علم واحد, ورأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد في ظل حكم عادل قوي يقوم على الحرية والحق والعدالة , وكل هذا كان من برنامج " الداعي/ علي الصليحي " الذي أخذ يوطد دعائم ملك الدولة على هذا الأساس , ويرسي قواعدها وينضم سياسة البلاد وأدارتها.

ويولي في المناطق والحصون من يرتضيه ويثق به من الولاة والحكام والقواد , فولى على " تهامة" "الأمير أسعد بن شهاب الصليحي" وهكذا دخل " زبيد " سنة 456هـ. وسكن " دار شحار" فأحسن السيرة في الرعية, وأذن لأهل السنة في إظهار مذهبهم, كما أمرهم بذلك الداعي /"علي الصليحي , وعامل أيضاً أرباب الدولة النجاحية بالحسنى.   
وعين الصليحي أيضاً ابنه " الأمير المكرم" على " الجند" وما يليها, كما عين أخاه "عبد الله" على بلدة "ذي جبلة" فأخذ يصلحها ويعمرها. ومما تجدر الإشارة إليه أن الداعي علىالصليحي لم يكن اهتمامه مقصوراً على اليمن فحسب, بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده وبالأخص " الحجاز" وهي أقرب البلدان إلى اليمن, وأهمها في نظر المسلمين, وأحوجها إلى الاستقرار والأمن, وكان يتفانى في سبيل الدعوة الفاطمية والخليفة المستنصر بالله, فكان يجيب أوامره طائعاً، ويؤديها متبركا برضاه، معتزا بثقته، فلما خرجت "مكة" عن طاعة المستنصر بالله عليه السلام وقعت الخطبة التي كانت باسمه سنة 453هـ أرسل الداعي" على الصليحي "إلى واليها "شكر الحسيني "يحذ ره مغبة خروجه عليه, و تبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوي على الكثير من التهديد والوعيد ولما عيل صبر الصليحي وضاق صدره طلب من الخليفة المستنصر بالله أن يأذن له بإزالة الشريف شكر من مكة ؟ فأجابه المستنصر بالله بكتاب ينهاه عن سفك الدماء بالحرم الشريف قائلاً:   
"إياك أن تلقي الله بدماء بني فاطمة" فأطاع الداعي "علي الصليحي أمر الخليفة الفاطمي مكرهاً على ما كان يجري في البلاد المقدسة. ثم أنه توجه إلى "مكة" أخيراً سنة 454هـ وقضى فريضة الحج ومعه أمراء اليمن وزعماؤها, فانتزعها من "بني أبي الطيب" ولما توفي "شكر "خلفه "ابن جعفر " رئيس "الهواشم " وزوج ابنة "شكر" فشن حرباً على السليمانيين وأخرجهم من بلاد الحجاز, واستقل بإمارة "مكة" وأقام الخطبة للخليفة العباسي "القائم".   
ولما انتهى الداعي "علي الصليحي من فريضة الحج أخرج من الأموال والصدقات للبيت وللحرم وللمناسك ما يفوق حد التصور, وعامل الناس بالحسنى, وأظهر العدل والإحسان, وعمل على استمالة الناس إلى جانبه بما امتلك من الأموال, فطابت قلوبهم ورخصت الأسعار وأمنت الحجاج "أمناً لم يعرف مثله من قبل حتى أنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة" ولم تقف أعماله هناك عند هذا الحد, بل أنه شن حملة تأديب على القبائل الثائرة التي كانت تعتدي على الحجاج, ورد "بني شيبة" عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحجاج, ورد إلى البيت من الحلي والأثاث ما كان "بنو الطيب" الحسينيون قد أخذوه عندما تملكوا بعد "شكر" وكانوا قد عروا البيت والميزاب, ثم أخذ يصلح ما أفسده الأشراف في هذه البلاد, وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص, فكسب بحسن سياسته وإدارته رضا الخليفة المستنصر بالله عليه السلام, وثقة كثير من البلدان الإسلامية المجاورة لما قدمه من خدمات للحجاج عامه, وما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض وما جابه من الأقوات إلى أهالي تلك البلاد... وفلهجت الألسن بادعاء له في كل مكان والثناء على كرمه وأفعاله.   
ومهما يكن من أمر فإن الداعي "علي الصليحي أقام في الأراضي المقدسة حتى يوم عاشوراء سنة 455هـ, يخطب للخليفة المستنصر بالله عليه السلام, ويعيب على العباسيين إهمالهم شؤون الدين وفي أثناء إقامته في "مكة المكرمة" راسله الأشراف الحسينيين المغلوبون على أمرهم, طلبوا منه إن يختار من بينهم والياً عليهم لكي يبذلوا له الطاعة, فأقام على البلدة واليها السابق " محمد بن جعفر " وأعطاه مالاً وسلاحاً, وأصلح بين العساكر, فدل كل ذلك على حسن سياسته لأنه لم يتعنت مع الحسينيين ولم يظلمهم وآثر أن يحسن معاملتهم ليكسب ودهم وخاف أن يترك البلد قبل أن تستقر الأمور فيها, فتقع في أيديهم, ويستمرون في عنادهم وخلافاتهم, فأستعمل معهم اللين, وبذلك نجح في تحقيق سياسته مؤقتاً, وقفل بعد ذلك عائداً إلى " صنعاء". ومهما يكن من أمر فإن الشريف"محمد بن جعفر" أمير " مكة المكرمة" لم يعمل طوال عهده الذي بدأ من سنة453هـ إلى سنة487هـ على تنظيم الأمور في الأراضي المقدسة, وإقرار الأمن بها بالرغم من المساعدات المالية التي كانت ترد إليه من الخليفة العباسي أحياناً, ومن الخليفة الفاطمي أحياناً أخرى, بل أساء التصرف والسيرة فيها, وأصبح الحجاج في أواخر أيامه لا يأمنون على أنفسهم, كذلك لم يبدوا من هذا الشريف ما يشعر برغبته في الاستقلال عن الخلافة العباسية أو الفاطمية, بل دان لكل منهما بالطاعة في فترة متقاربة حتى وصل "أبو المحاسن " في كتابة " النجوم الزاهرة":   
" بأنه كان متلوناً تارة مع الخلفاء العباسيين العراقيين, وتارة مع الفاطميين المصريين, ويظهر من هذا أنه كان يلعب بمصالح البلاد المقدسة, ومصالح المسلمين جرياً وراء المال. وهناك من يقول:   
" إن هذا التلون يعود إلى دوافع سياسته وأخرى اقتصادية ".   
هذا....ومن الجدير بالذكر أنه بعد عودة الصليحي إلى " صنعاء" شكر له الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عليه السلام حسن صنيعه وامتثاله لأوامره بعدم إراقة الدماء في الأراضي المقدسة.

أسماء بنت شهاب [الصليحي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D9%86%D9%88_%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%AD)

كانت ملكة اليمن وزوجة [علي بن محمد الصليحي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D9%84%D9%8A_%D8%A8%D9%86_%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%AD%D9%8A) مؤسس [الدولة الصليحية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%AD%D9%8A%D8%A9). لا توجد معلومات عن موعد ولادتها ومسقط رأسها ولكنها إبنة عم زوجها الملك [علي بن محمد الصليحي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D9%84%D9%8A_%D8%A8%D9%86_%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%AD%D9%8A) وهو من منطقة[حراز](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8%B1%D8%A7%D8%B2) من قبيلة [حاشد](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8%A7%D8%B4%D8%AF). كانت من عائلة ثرية وزوجها لم يكن فغالى والدها في مهرها فحاول [علي بن محمد الصليحي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D9%84%D9%8A_%D8%A8%D9%86_%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%AD%D9%8A) الإستدانة من بني معن حكام [عدن](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%AF%D9%86) آنذاك ليدفع مهرها ولكنه توجه إلى [زبيد](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B2%D8%A8%D9%8A%D8%AF) أولاً ودخل أحد المساجد، فرآه رجل من [تهامة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%87%D8%A7%D9%85%D8%A9)فأراد إكرامه وضيافته فرفض الصليحي لأسبابه الخاصة إلا أن الرجل أصر على ضيافته إلى أن وافق علي بن محمد. وقص عليه سبب نزوله [تهامة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%87%D8%A7%D9%85%D8%A9) قائلا :

«إن لي عم إسمه شهاب وله ابنة يقال لها أسماء قليلة النظير في الجمال معدومة المثل في الأدب والعقل، خطبتها إليه فاشتط في مهرها»

فلما سمع الرجل قصته دفع له ضعف مااحتاج وعاد إلى حراز وتزوج إبنه عمه أسماء.[[1]](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%A8#cite_note-1) حكمت اليمن مع زوجها وكان اسمها يذكر في خطب الجمعة.[[2]](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%A8#cite_note-2) وعقب مقتل زوجها، كان ابنها المكرم [أحمد بن علي الصليحي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%A8%D9%86_%D8%B9%D9%84%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%AD%D9%8A) يأخذ أوامره منها مباشرة ولكنه لم يستمر في الحكم طويلاً لإصابته [بشلل العصب الوجهي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B4%D9%84%D9%84_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B5%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%AC%D9%87%D9%8A) فكانت من اختار زوجته [أروى بنت أحمد الصليحي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B1%D9%88%D9%89_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%AF) لحكم [الدولة الصليحية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%AD%D9%8A%D8%A9)[[3]](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%A8#cite_note-3) كانت لا تغطي وجهها عند ظهورها إلى العلن وهي من ربى الملكة [أروى بنت أحمد](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B1%D9%88%D9%89_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%AF) وظلت تقدم لها النصائح ولابنها حتى وفاتها في [جبلة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D8%A8%D9%84%D8%A9_(%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%85%D9%86)) عام [1097](https://ar.wikipedia.org/wiki/1097).[[4]](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%A8#cite_note-4)

ا الصليحيون و الكيانات السياسية في اليمن

بنو حاتم

الاسم: حاتم بن أحمد بن عمران بن المفضل بن علي بن غوث بن الغمر الهمداني . من قرية : همدان  
القرن الذي عاش فيه القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي  
(ت 556 هـ / 1161 م )

كان يلقب بـ(حميد الدولة)؛ ويعتبر سلطانا من سلاطين الدولة (الصليحية)، ذات العقيدة الباطنية (الإسماعيلية)، عالم في اللغة، حافظ لأيام العرب، وأمثالها، وأشعارها، متكلم فصيح، عارف بالطب وعلم النجوم.  
قال عنه المؤرخ (علي بن الحسن الخزرجي) في كتابه (طراز أعلام الزمن): "كان أوحد عصره، وسلطان أهل بلدته في مصره، وكان سيد (همدان) وكريمها، ومقدمها وزعيمها".   
أجمعت عليه قبائل (همدان)، وبايعته سنة 533هـ/ 1139م. ولما انتظم له الأمر زحف على صنعاء بسبعمائة فارس من (همدان) سنة 545هـ/1150م محاولاً احتلالها، والقضاء على الإمام (أحمد بن سليمان)، الذي كان جيشه يزيد على الثمانين ألفًا، منهم ألفٌ وخمسمائة فارسٍ، والباقون مشاة.  
واشتعلت بين الفريقين معركة شرسة في منطقة تسمى: (الشزرة)، هزم فيها صاحب الترجمة، وقتل من جنده خمسمائة فارس، وَفَرَّ إلى قرية (الدرب)، من بلاد (أرحب)، بالقرب من مدينة صنعاء، وتبعهم جنود الإمام. وتواصلت المعارك، وسقط العديد منهم، وأبلت (همدان) بلاءً كبيرًا في ذلك اليوم؛ نُصرة لزعيمها صاحب الترجمة. وتدخَّل عدد من وجهاء ومشايخ القبائل لِعَقْدِ صُلْحٍ بين الإمام والسلطان، وتَمَّ إبرامُهُ، وأنصف الإمام هذا اليامي، وعفا عنه.  
وبعد شهور عادت العداوة والبغضاء بين الطرفين، وضعف موقف الإمام عسكريًّا، فقام صاحب الترجمة خلالها بإعادة تنظيم جيشه، وتأليب (همدان)؛ لقتال الإمام (أحمد بن سليمان) الذي غادر مدينة صنعاء، وخرج إلى موضع يقال له: (شِعب الجن)، وتحصن فيه، واستنجد بقبيلة (جَنْب) في جبل (هران) المطل على مدينة ذمار، فطارده صاحب الترجمة، حتى هزمه، وقتل من جنوده طائفة كبيرة.  
وذكر المؤرخون أن رجلاً من جنود حاتم بن أحمد، أصاب رجلين يركبان ناقة برمح واحد، واخترقهما، وسُمّي من ذلك اليوم: (النَّظَّام)، وتفرقت القبائل على الإمام، واستولى حاتم بن أحمد على مدينة صنعاء، وعرض على القبائل التي كانت مع خَصْمه أن يدفع لها ديات قتلاها، شريطة الولاء له، واتباعه والدخول في طاعته، وتم له ما أراد، واستقر في مدينة (الروضة)، التي سميت (روضة اليامي)، أو (روضة حاتم)، وهي ضاحية شمالي مدينة صنعاء، أصبحت اليوم جزءًا منها.  
واستمرت المراسلات والمحاورات بين السلطان والإمام شعرًا ونثرًا، ومن أقوال الإمام (أحمد بن سليمان): إن السلطان (حاتم) عاقلٌ لم يُنتفع بعقله، وطبيب لم يُنتفع بطبه. 

الصليحيون وبني الزريع بعدن

بنو زريع هم من دعاة العبيديين باليمن في ناحية عدن.

وعدن هذه من أمنع مدائن اليمن وهي على ضفة البحر الهندي وما زالت بلد تجارة من عهد التبابعة وأكثر بنائهم بالأخصاص ولذلك يطرقها تجار الحرير كثيرا وكانت صدر الإسلام دار ملك لبني معن ينتسبون إلى معن بن زائدة ملكوها من أيام المأمون وامتتعوا على بني زياد قنعوا منهم بالخطبة والسكة ولما استولى الداعي علي بن محمد الصليحي رعى لهم ذمام العروبية وقرر عليهم ضريبة يعطونها ثم أخرجهم منها ابنه أحمد المكرم وولى عليها بني المكرم من عشيرة جسم بن يام من همذان وكانوا أقرب عشائره إليه فأقامت في ولايتهم زمنا ثم حدثت بينهم الفتنة وانقسموا إلى فئتين بني مسعود بن المكرم وبني الزريع بن العباس بن المكرم وغلب بنو الزريع بعد حروب عظيمة قال ابن سعيد: وأول مذكور منهم الداعي بن أبي السعود بن الزريع أول من اجتمع له الملك بعد بني الصليحي وورثه عنه بنوه وحاربه ابن عمه علي بن أبي الغارات بن مسعود بن المكرم صاحب الزعازع فاستولى على عدن من يده بعد مقاساة ونفقات فى الأعراب ومات بعد فتحها بسبعة أشهر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وولي ابنه الأغر وكان مقيما بحصن الدملوة المعقل الذي لا يرام وامتنع عليه بعده ابن بلال بن الزريع من مواليه وخشي محمد بن سبا على نفسه ففر إلى منصور بن المفضل من ملوك الجبال الصليحيين بذي جبلة ثم مات الأغر قريبا فبعث بلال بن محمد بن سبا فوصل إلى عدن وكان التقليد جاء من مصر باسم الأغر فكتب مكانه محمد بن سبا وكان نعوته الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين فوقعت كلها عليها وزوجه بلال بنته ومكنه من الأموال التي كانت في خزائنه ثم مات بلال عن مال عظيم وورثه محمد بن سبا وأنفقه في سبيل الكرم المرؤات واشترى حصن ذي جبلة من منصور بن المفضل بن أبي البركات كما ذكرناه واستولى عليه وهو دار ملك الصليحيين وتزوج سيدة بنت عبد الله الصليحي وتوفي سنة ثمان وأربعين وولي ابنه عمران بن محمد بن سبا وكان ياسر بن بلال يدبر دولته وتوفي سنة ستين وخمسمائة وترك ولدين صغيرين وهما محمد وأبو السعود فحبسهما ياسر بن بلال في القصر واستبد بالأمر وكان ياسر محمد كثير العطية للشعراء

وهو آخر ملوك الزريعيين ولما دخل سيف الدولة أخو صلاح الدين إلى اليمن سنة ست وستين وستمائة واستولى عليها جاء إلى عدن فملكها وقبض على ياسر بن بلال وانقطعت دولة بنى زريع وصار اليمن للمعز وفيه ولاتهم بنو أيوب كما نذكر في أخبارهم وكانت مدينة الجدة قرب عدن اختطها ملوك الزريعيين فلما جاءت دولة بني أيوب تركوها ونزلوا تعز من الجبال كما يأتي ذكره.

. الصليحيون وآل معن :   
نورد لكم جزء من تاريخ حكام عدن والجنوب قديما وهم بنو معن سلاطين العوالق العليا والسفلى وقد ظهرت دولتهم آبان ضعف الحكم المركزي للخلافه الاسلاميه في بغداد وحكامها العباسيين والذي كان سبباً في قيام عدد من الدويلات في العالم العربي والاسلامي ومنها اليمن وفي اليمن قامت الدوله الزياديه والدوله الزريعيه ودولة بني نجاح والدوله الرسوليه والدوله الصليحيه وهذه الاخيره هي التي كانت نهاية دولة بني معن على يديها والذي اخرجهم منها الملك الصليحي المكرم بن علي زوج السيده اروى بنت احمد الصليحيه ولكن بعد ان هزموا بني معن واخرجوهم من عدن نزلوا الى ارض العوالق وانشئوا دولتهم فيها وكانت ( يشبم ) اول عاصمة لبني معن بعد خروجهم من عدن ومع مرور الزمن وتكاثر الوادي بقبائل آل علي آشار الشيخ عبيد بن عبدالملك بانافع على سلاطين بني معن ان يتفرقوا وبالفعل ذهب احدهم الى نصاب وكون سلطنة العوالق العليا والآخر ذهب الى آحور وكون سلطنة العوالق السفلى وبقي آل علي في واديهم يتزعمهم آل فريد بن ناصر ( لمراجعة قصة تفرق سلاطين بني معن في ارض العوالق الرجوع الى كتاب تاريخ قبائل العوالق للمؤلف الدكتور علوي عمر بن فريد )  
وهكذا قامت بعد ذلك سلطنات بني معن او سلطنات العوالق ونجد انهم ما زالوا يذكرون عدن وبقية مناطق الجنوب انها ما زالت من املاكهم حتى وان اخذت عليهم والدليل انهم يقومون بغزو مناطق الجنوب لاخذ العشر او الحقوق كما يسمونها وصار ذلك الى ان اتت بريطانيا فوقعوا معها الحمايه وكما قلت هذا جزء من تاريخ دولة بني معن وساحاول بأذن الله ان افيدكم فيما بعد عن قائمة حكامهم قديما ايام الدوله الزياديه وغيرها من الدول التي عاصرتها وعن اعمالهم وارجو من اي عضو يعرف عن تاريخ بني معن ولو القليل ان يفيدنا عنه مشكوراً .  
  
وهنا افرد لكم ما قالته بعض كتب التاريخ عن دولة بني معن .  
  
وقد استطاع آل معن الاستقلال بحكم عدن سنة 412هـ ، حتى طردهم آل زريع ولم تتوسع المصادر في الحديث عن هذه الأمارة المعنية   
ذكر ابن خلدون عند الحديث عن عدن : كانت صدر الإسلام دار ملك لبني معن ينتسبون إلى معن بن زائدة ، ملكوها من أيام المأمون وامتنعوا على بني زياد ، قنعوا منهم بالخطبة والسكة ، ولما استولى الداعي على بن محمد الصليحي رعى لهم ذمام العروبية ، وقرر عليهم ضريبة يعطونها ثم أخرجهم منها ابنه أحمد المكرم (ابن خلدون ج4 ص 279) .  
  
وجاء في تاريخ عمارة : ممن تغلب على عدن وأبين ولحج والشحر وحضرموت بنو معن (عمارة ص 86) .  
  
  
وذكر صاحب (غاية الأماني) : ودخلت سنة 410هـ وعدن ولحج وأبين وحضرموت والشحر إلى بني معن (ابن الحسين ج1 ص241) وقال في موضع آخر : فلم يزل بنو معن يرفعون إليها - إلى زوجة المكرم الصليحي - خراج عدن إلى أن قتل علي الصليحي ثم تغلبوا على ما قبلهم فغزاهم المكرم بعد عوده من زبيد ، وأخرجهم من عدن" (ابن الحسين ج1 ص260) .  
  
  
وتذكر إحدى كتب تاريخ عدن أن الداعي علي بن محمد الصليحي لما استولى على اليمن ، وافتتح عدن وأخذها من بني معن ، وكانوا قد استولوا عليها بعد موت الحسين بن سلامة عليها وعلى لحج وأبين وحضرموت والشحر وليسوا من ذرية معن بن زائدة ، فأبقاها الصليحي تحت أيديهم ، وجعلهم نواباً له فيها ، فلما تزوج ابنه المكرم على الحرة السيده اروى بنت أحمد جعل لها علي بن محمد الصليحي صداقها ، فكان بنو معن يرفعون خراجها إلى السيدة في أيام الصليحي ، فلما قتل تغلب بنو معن على ما تحت أيديهم من البلد ، فقصدهم المكرم إلى عدن وأخرجهم منها (بامخرمة ج2 ص79) .  
  
  
وجاء في منظومة القاضي العرشي وحاشيتها :  
  
  
وطوقت آل معن بعد عقدهم=طوال النكال على الأعناق والقصر  
  
آل معن هؤلاء ملوك عدن وما إليها من حضرموت ولحج وأعمالها وما إليها، وكان ابتداء ملكهم سنة 412هـ ، إلى أن أزالهم الله وأخرجهم عنها المكرم الصليحي من بعد سنة 460هـ (العرشي ص 21).  
  
وذكر مؤلف "اليمن شماله وجنوبه" : إن بني معن أخرجوا من بقي فيها - أي في عدن - من بني زياد عام 1019م ، واستولوا عليها ، حتى جاء علي بن محمد الصليحي عام 1062م ، فاستولى عليها ، وعهد بإدارتها إلى بني معن كولاة من قبل بني الصليحي ، فلما تمرد بنو معن على حكم بني الصليحي في عام 1083م توجه المكرم الصليحي إلى عدن وطرد منها بني معن (المحامي ص 172).  
  
وكان بدايات دولة آل معن - وكما ذكر المؤرخين - حوالي 410هـ بعد انحسار الدولة الزيادية ، وقيام دولة آل نجاح في تهامة ، ولعل آل معن كانوا ولاة عدن من قبل الدولة الزيادية ثم استقلوا بحكمها ، فلما تقوت دولة آل نجاح تركوا آل معن ولاة لعدن كنواب عنهم ، وعندما جاء الصليحي وأسقط آل نجاح سنة 455هـ ترك آل معن في عدن .  
  
أما نهاية دولتهم فكانت بعد مقتل على الصليحي مؤسس الدولة الصليحية فتمرد آل معن مما دفع بالمكرم بن علي الصليحي إلى إخراجهم من عدن وتولية آل زريع من يام حكاماً لعدن سنة 467هـ وخرج آل معن إلى أحور (الجرافي ص123) .  
  
ويبدو أن خروج آل معن إلى أحور كان نهائياً إذ استقروا فيها ، ومنها انتقلوا إلى بلدانهم الحالية في بلاد العوالق العليا ، حيث أصبحوا أبرز القبائل في تلك المنطقة .  
  
وقد عد المؤرخون عدداً من حكام هذه الدولة كلهم أخوة هم : علي بن معن ، ثم العباس ثم محمد ابني معن (الجرافي ص 123) .  
  
ويظهر من تتبع النصوص السابقة أن دولة آل معن كانت تتبع الدولة الصليحية ، مع أن العلاقة بينهما لم تكن حسنة ، ولعل ذلك يرجع إلى كونهم يسوقون خراج عدن لها ، لذا استغلوا أول فرصة وهن للدولة الصليحية ، وهي مقتل علي الصليحي ، وقاموا بتمردهم الذي أدى إلى إنهاء دولتهم ، ويظهر كذلك أن دولة آل معن لم تكن قوية ، إذ لم يذكر أنها اصطدمت بالدول التي عاصرتها في اليمن . أما عن حكم آل معن لحضرموت - إذا افترضنا صحة ذلـــك - فهو حكم اسمي لم يتعد حضرموت الساحل ، ويؤكد ذلك خلو كتب التاريخ الحضرمي من ذكر لدولة آل معن ، ويبدو أن المؤرخين قد أطلقوا ذلك باعتبار آل معن نواباً للدولة الزيادية ثم للدولة الصليحية اللتين وصل حكمها إلى حضرموت. (للاطلاع انظر مقالة الدكتور أمين صالح حول بني معن مجلة المؤرخ العربي العدد 21).  
  
أما عن نسب آل معن فهناك رأيان يرجع أحدهما هذا النسب إلى معن بن زائدة الشيباني ، ورأي آخر ينفي ذلك ، وابرز من قال بهذا الرأي ابن خلدون ، ومن اتبعه من المحدثين أمثال الجازع . ويذهب للرأي الثاني أكثر المؤرخين أمثال صاحب "ثغر عدن" ومؤلف تاريخ عمارة ، والمحقق العلامة محمد بن علي الأكوع، الذي يعلق في حاشية تاريخ عمارة بقوله : بنو معن هؤلاء من حمير ثم من الأصابح" (عمارة ص86) .  
  
  
ويذكر باوزير أن من ملوك كندة الملك أبو الفضل عباس بن معن من حوشب الكندي وذكر شعراً لأبي إسحاق الإباضي يمدح هذا الملك :هو أبو الفضل عباس بن معن بن حوشب من ذرى كنده العليا الملوك القماقم  
  
وقد يكون قول ابن خلدون في هذه المسألة ليس بحجة لبعده عن بلدان الجزيرة ، ولعله استنتج النسب من تطابق الأسماء ، وكون معن بن زائدة وآل معن قد حكما عدن ، والراجح عندي كون آل معن من حمير لعدم وجود نص ثابت يربط آل معن بمعن بن زائدة ، إضافة إلى أن عهد معن بن زائدة في عدن كان قصيراً ودموياً ، لا يمكن أن يوجد له قاعدة شعبية يمكن أن تخدم ذريته في بناء دولة ، وليس من شك أن حكم آل معن لعدن واستقلالهم بها لم يكن ليتم دون عصبية قوية ، هي على الأرجح إحدى القبائل المجاورة لعدن ، لذا فلا يستبعد كونهم من الأصابح من حمير كما ذكر الأكوع .

الصليحيون و ابن مهدي الخارجي وبنيه وذكر دولتهم باليمن وبدايتها وانقراضها.

كان علي بن مهدي الحميري أحد أتباع بني نجاح، وكان من وجهاء الدولة والمقربين لحكامها، وكان صنيعة لأحد نساء تلك الدولة وهي أم فاتك بن منصور آخر حكام بني نجاح، ثم قامت اظطرابات بين بني نجاح فانفصل عنهم، وتحصن في بعض الحصون في تهامة سنة 545هـ، وقام بغزو زبيد مرارا حتى أجلى الإمام أحمد بن حمزة عنها سنة 554هـ، وأسس دولة بني مهدي.

هذا الرجل من أهل العثرة من سواحل زبيد وهو علي بن مهدي الحميري كان أبوه مهدي معروفا بالصلاح والدين ونشأ ابنه على طريقته فاعتزل ونسك ثم حج ولقي علماء العراق وأخذ الوعظ من وعاظهم وعاد إلى اليمن واعتزل ولزم الوعظ وكان حافظا فصيحا ويخبر بحوادث أحواله فيصدق فمال إليه الناس واغتبطوا به وصار يتردد للحج سنة إحدى وستين ويعظ الناس في البوادي فإذا حضر الموسم ركب على نجيب له ووعظ الناس ولما استولت أم فاتك على بني جياش أيام ابنها فاتك بن منصور أحسنت فيه المعتقد وأطلقت له ولقرابته وأصهاره خرجهم فحسنت أحوالهم وآثروا وركبوا الخيول وكان يقول في وعظه: دنا الوقت! يشير إلى وقت ظهوره واشتهر ذلك عنه وكانت أم فاتك تصل أهل الدولة عنه فلما ماتت سنة خمس وأربعين جاءه أهل الجبال وحالفوه على النصرة وخرج من تهامة سنة ثمان وثلاثين وقصد الكودا فانهزم وعاد إلى الجبال وأقام إلى سنة إحدى وأربعين ثم أعادته الحرة أم فاتك إلى وطنه وماتت سنة خمس وأربعين فخرج إلى هوازن ونزل ببطن منهم يقال له حيوان في حصن يسمى الشرف وهو حصن صعب ليس يرتقي على مسيرة يوم من سفح الجبل في طريقه أوعار في واد ضيق عقبة كؤد وأصحابه سماهم الأنصار وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين وأمر للأنصار رجلا إسمه سبا وللمهاجرين آخر إسمه شيخ الإسلام وإسمه النوبة واحتجب عمن سواهما وجعل يشن الغارات على أرض تهامة وأعانه على ذلك خراب النواحي بزبيد فأخرب سابلتها ونواحيها وانتهى إلى حصن الداثر على نصف مرحلة من زبيد وأعمل الحيل في قتل مسرور مدبر الدولة فقتل كما مر وأقام يخيف زبيد بالزحوف قال عمارة: زاحفها سبعين زحفا وحاصرها طويلا واستمدوا الشريف أحمد بن حمزة السليماني صاحب صعدة فأمدهم وشرط علهم قتل سيدهم فاتك فقتلوه سنة ثلاث وخمسين وملك عليهم الشريف ثم عجز وهرب عنهم واستولى علي بن مهدي عليها في رجب سنة أربع وخمسين ومات لثلاثة أشهر من ولايته وكان يخطب له بالإمام المهدي أمير المؤمنين وقامع الكفرة والملحدين وكان على رأي الخوارج يتبرأ من علي وعثمان ويكفر بالذنوب وله قواعد وقواميس في مذهبه يطول ذكرها وكان يقتل على شرب الخمر قال عمارة: كان يقتل من خالفه من أهل القبلة ويبيح نساءهم وأولادهم وكانوا يعتقدون فيه العصمة وكانت أموالهم تحت يده ينفقها عليهم في مؤنهم ولا يملكون معه مالا ولا فرسا ولا سلاحا وكان يقتل المنهزم من أصحابه ويقتل الزاني وشارب الخمر وسامع الغناء ويقتل من تأخر عن صلاة الجماعة ومن تأخر عن وعظه يوم الإثنين والخميس وكان حنفيا في الفروع ولما توفي تولى بعده ابنه عبد النبي وخرج من زبيد واستولى على اليمن أجمع وبه يومئذ خمس وعشرون دولة فاستولى على جميعها ولم يبق له سوى عدن ففرض عليها الجزية ولما دخل شمس الدولة تورشاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة ست وستين وخمسمائة واستولى على الدولة التي كانت باليمن فقبض على عبد النبي وامتحنه وأخذ منه أموالا عظيمة وحمله إلى عدن فاستولى عليها ثم نزل زبيد واتخذها كرسيا لملكه ثم استوخمها وسار في الخيال ومعه الأطباء يتخير مكانا صحيح الهواء ليتخذ فيه سكناه فوقع اختيارهم على مكان تعز فاختط به المدينة ونزلها وبقيت كرسيا لملكه وبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكر في أخبارهم وبانقراض دولة بني المهدي انقرض ملك العرب من اليمن وصار للغز ومواليهم.  
وكان علي بن مهدي هذا خارجيا متعصبا، وجعل دولته دولة مستقلة عن الخلافة العباسية، وتسمى بالإمام المهدي أمير المؤمنين وقامع الكفرة والملحدين، وكان على مذهب الخوارج في التبرؤ من عثمان وعلي رضي الله عنهما، ويكفر بالذنوب، ويقتل على شرب الخمر والزنا وسماع الغناء وعلى الفرار من المعركة وعلى التأخر عن صلاة الجمعة، وحتى على التأخر عن مواعظه يومي الإثنين والخميس، وكان يسبي النساء والولدان من مخالفيه من أهل القبلة، كما كان حنفيا في الفروع.  
  
ومات علي بن مهدي بعد استيلاءه على زبيد بثلاثة أشهر، وحكم بعده ابنه عبدالنبي بن علي بن مهدي، الذي استطاع أن يوسع دولته بشكل كبير، فأفنى الصليحيين، وأخذ كثيرا من مناطق بني زريع، واستولى على الحديدة وجبلة، وفرض الجزية على آخر معاقل بني زريع في عدن. وسيطر على أكثر من عشرين حصنا في اليمن، وأرهق الأئمة بالحروب.  
  
ولم تنته مغامرات ذلك الخارجي الذي كاد أن يوحد اليمن إلا بوصول شمس الدولة توران شاه بن أيوب إلى السواحل اليمنية، مرسلا من أخيه صلاح الدين الأيوبي سنة 566هـ، فدخل معه في معارك، استطاع السلطان توران شاه من الانتصار فيها وأسر عبد النبي هذا.

من هم القرامطة

وتنسب القرامطة إلى مؤسسها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط وكان قد قدم من خوزستان ونزل بموضع في الكوفة حوالي سنة 273 وتظاهر بالزهد والورع والتقشف، وكان ينسج الخوص، ويأكل من كسب يده، ويكثر من الصلاة، وأقام على ذلك زمنا، وكان إذا تردد عليه الناس وجلسوا إليه، حدثهم أمر الدين وزهده في الدنيا، وأخبرهم أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في اليوم والليلة، حتى نشا ذلك بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت، فأقام على الدعاية حتى اجتمع حوله أناس كثيرون.  
والقرامطة ينتمون إلى الإسماعيلية:

وهي طائفة من طوائف الشيعة، وقد أتقن هؤلاء الإسماعيلية فنون الدعوة إلى مذهبهم كل الإتقان، وبثوا دعاتهم في المناطق المتطرفة وبين الناس يغلب عليهم الجهل وقلة النظر والبحث، فيستميلون الناس إلى مذهبهم.  
ولا شك أن نظرية الإمامة هي أهم مبادئ هذا المذهب، وهي الفيصل بينهم وبين سائر مذاهب الشيعة، فهم يقولون أن العالم لم يخل من أمام ولن يخلو من أمام، فالإمامة متسلسلة من آدم عليه السلام، ولا بد أن يكون ابن أمام ، وابن ابنه الذي سوف يتولى الإمامة من بعده، قد ولد أو انفصل عن صلبه، ويقولون أن هذا هو المعنى الآية ((ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ)) [آل عمران:34]، والآية ((وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ)) [الزخرف:28]، فلما احتج على الشيعة بالحسن بن علي، وكان إماما باتفاق الشيعة أجمعين، بينما لم يكن ابنه إماما، قالوا أن إمامته مستودعة، أي لم تكن ثابتة أو مستقرة، أو هي عارية، أما إمامة الحسين فكانت مستقرة، والآية ((فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)) [الأنعام:98]، تشير إلى ذلك.  
ولا يكون الإمام ظاهرا على الدوام، فهو أحيانا يظهر وأحيانا يستتر، مثله في ذلك مثل الليل والنهار متعاقبان.  
ومن أهم النظريات الفارقة عندهم نظرية التأويل، أي تفسير النصوص على غير ظاهرها، فهم يقولون بأن الرسل هم أصحاب التنزيل والأئمة أصحاب التأويل.  
والأئمة كانوا دائما موجودين إلى جانب الرسل، فكل رسول يصحبه إمام مهمته تأويل وحي الله إلى الرسول، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة الإمام.  
والتأويل عندهم هو الباطن، وللشريعة عندهم ظاهر وباطن فإذا كان الإنسان عارفا بباطن الشريعة فلا شي إن هو استهان بالظاهر ولم يؤد الفرائض، ولم يحل الحلال ويحرم الحرام.  
ويشير الوزير السلجوفي نظام الملك في كتابة سياسة نامة إلى أن القرامطة ما هم إلا فرقة من الفرق الباطنية التي انتشرت كل حين في أرجاء العالم الإسلامي، وتسمت باسم مختلف، في حسن أن عقائدها كلها متشابهة، وهم يضمرون الكيد، ويكنون الحقد للأمة الإسلامية ويتربصون بها الدوائر، ويطلق عليهم في بغداد وما وراء النهر وغزنة قرمطية، وفي الكوفة مباركية، وفي البصرة رواندية وبرقمية، وفي الرس خلفية وباطنية، وفي كزكان محمرة، وفي الشام مبيضة، وفي المغرب سعيدية، وفي الحسا والبحرين جنابية، وفي اصفهان باطنية، بينما هم يسمون أنفسهم) تعليمية) أي أنهم لا يبرءون أمرا أو يأتون عملا إلا بناء على تعليمات أمامهم الحي القائم أبدا، ولي لهم من هدف إلا الإطاحة بالإسلام وهم أعداء لأهل ببيت رسول الله عليه السلام...

بداية امر القرامطة  
وكان مبدأ أمرهم في البحرين (القديمة) وكانت بداية القرامطة هناك أن أحد دعاتهم خرج إلى) القطيف) عاصمة البحرين وأعظم مدنها في الإسلام، والتقى بمن بها من الشيعة وأخبرهم أنه رسول المهدي إليهم، وقد قرب خروجه وأوصاهم بالاستعداد والتأهب، وكان عددهم لا يزيد على ثمانمائة، وكان من بينهم رجل يسمى بأبي سعيد الحسين بن بهرام الجنابي، بصفة القاضي عبد الجبار الهمذاني بقوله:) كان يبيع الطعام والدقيق في أحدى قرى البحرين، وكان شويسرا فاسقا جاهلا لا يعرف من كتاب الله شيئا، ولا من سنة نبية ولا شيئا من الأدب، ولا شغل له إلا بالمعاش.  
وقد عظم أمرهم بالبحرين فأغاروا على نواحيها، وقرب بعضهم من البصرة، وكان ذلك في سنة سبع وثمانين ومائتين (287 هـ)، ونادي أبو سعيد الجنابي في الناس حين سيطر على منقطة البحرين بعد أن هزم الجيوش التي جردها الخليفة العابس لقتالهم – بأنه رسول الإمام وبأن الإمام مقيم في بعض هذه الجبال، وهو المهدي، وأنه في سنة ثلاثمائة للهجرة يخرج ويملك الأرض لكها.  
فلما كانت سنة ثلاثمائة لم يظهر الإمام الموعود، ولم يلبث أبو سعيد نفسه أن قتل، قتله خادم من خدمه في الحمام في سنة أحدى وثلاثمائة (301هـ ).  
ولما قتل أبو سعيد كان قد استولى على هجر والإحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين.  
ومن استقراء تطور الأحداث في تلك الفترة نلاحظ على القرامطة ما يلي:   
1- أنهم كانوا من الإسماعيلية يدعون إلى أن الإمامة قائمة في أبناء محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأن أمامهم قائم حي، وأعلنوا أنهم ليسوا كالرافضة والاثنى عشرية الذين يقولون أن لهم أماما ينتظرونه.  
2- تمكن القرامطة من فتنة عدد كبير من الفلاحين وأهل البادية، وضموهم إلى مذهبهم، ووعدوهم بأن التوبة عليهم لكن يمسكوا أزمة الأمور في هذا العالم، بعد أن كانوا مستضعفين مستذلين، يستغلهم سادتهم من الحكام والأغنياء، وكانوا يكتبون على أعلامهم التي يرفعونها أثناء القتال الآية الشريفة: ((وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)) [القصص:5]( ).  
3- كان القرامطة يتدرجون في دعوتهم للناس، فيدعون إلى التشيع وإلى إمام من أهل البيت، ثم يتدرجون شيئاً فشيئاً إلى الغلو والإباحة، يقول القاضي عبد الجبار عنهم: (ألا ترى أن من بالإحساء من القرامطة والباطنية لما غلبوا شتموا الأنبياء، وعطلوا الشرائع وقتلوا الحجاج والمسلمين حتى أفنوهم، واستنجوا بالمصاحف والتوراة والإنجيل، وجاءوا برجل يقال له: زكرويه الأصفهاني المجوسي، وقالوا: هذا هو الآله في الحقيقة، وعبدوه..... وكل هؤلاء كانوا في أول أمرهم يخدعون الناس بأنهم شيعة، وأن المهدي أرسلهم.  
ثم يشير القاضي عبد الجبار: إلى أنهم كانوا يسترون عقائدهم فلا يكاشفون العامة بشتم الأنبياء وتعطيل الشرائع، وإنما يخدعون الناس سراً، وينقلونهم عن الإسلام بالحيل والأيمان من حيث لا يشعرون شيئاً فشيئاً، وهم يقصدون بدعوتهم الديلم والأعراب، وكل من يقل بحثه ونظره، وله رغبه بالدنيا، وشغل بها، ثم يقطعونهم عن البحث والنظر بالعهود ولإيمان المغلطة.

القرامطة وهجومهم على مكة في القرن الرابع الهجري

4- القرامطة وهجومهم على مكة المكرمة في القرن الرابع الهجري  
في سنة سبع عشرة وثلاثمائة هاجم قرامطة البحرين مكة المكرمة في موسم الحج، وأعملوا السيوف في رقاب الحجيج، واستحلوا حرمة البيت الحرام، فخلعوا باب الكعبة، وسلبوا كسوتها الشريفة، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه، واحتملوه إلى بلادهم، وأعملوا السل والنهب في البلد الحرام،وقتلوا زهاء ثلاثين ألفا من أهل البلد ومن الحجاج وسبوا النساء والذراري، وانقلبوا إلى بلادهم يحملون الحجر الأسود حيث أبقوه عندهم نحو اثنتين وعشرين سنة، ثم أعادوه إلى مكة.  
و كان موقف القرامطة من الحجاج وقوافل الحج عجيبا، فقد بدأ تعرضهم للأفواج الأولى من القوافل منذ سنة أربع وتسعين ومائتين (294)، فكانوا يعملون فيها السيف، ويقتلون الرجال، ويغنمون الزاد والمال ويسبون النساء، ويأسرون الشيوخ والأطفال، ويسدون الآبار التي على الطرق بالجيف والرمال والأحجار فلا تجد القوافل المتابعة على الطريق ماء، فيحاربونها وأصحابها على غير ماء، فيضطرون للتسليم من شدة العطش، فيفعلوا القرامطة بهم مثل فعلهم بمن سبقهم من الحجيج، وقد ذكر ثابت بن سنان في كتابة) تأريخ أخبار القرامطة) أن عدد القتلى في أحدى القوافل بلغ عشرين ألفا)  
وعندما ولى أمر القرامطة بالبحرين أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي، الذي بدأ بالتعرض للحجاج سنة أحدى عشرة وثلاثمائة (311)، فنهب قوافل الحجاج من أهل بغداد والمشرق وأخذ جمالهن، وما أردا من أمتعتهم وأموالهم، ونسائهم وصبيانهم وعاد إلى هجر وترك الحجاج في مواضعهم، فمات أكثرهم جوعاً وعطشا ومن حر الشمس.  
وسار أبو طاهر في السنة التالية، سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة (312) يريد الحاج أيضا، فاستولى على الكوفة، وكانت تقع في طريق القوافل إلى مكة، فانصرف الناس عن الحج ولم يحج أحد منهم في تلك السنة (12).  
وتتابعت هجمات القرامطة على الحجاج في السنوات التالية، حتى هاجموا مكة، واقتلعوا الحجر الأسود سنة سبع وعشرة وثلاثمائة (317).  
وربما كان أفضل من أرخ لهذا الحادث وأسهب في وصفه واستعص أطرافه، وبين غوامضه قاضي القضاء عبد الجبار الهمداني (المتوفى سنة 415 أو 416) أي أنه عاصر بعض من شهد حادث هجوم القرامطة واقتلاعهم الحجر الأسود، وقد أورد القاضي عبد الجبار وصفه لهذا الحادث في كتابه (تثبيت دلائل النبوة)، كما عاصر الحادث نفسه وأورد مختصرا له كل من أبي الحسن المسعودي (المتوفى سنة 345) في كتابة (التنبيه والإشراف).  
وثابت بن سنان بن قرة الصابر (المتوفى سنة 365) في تأريخه عن القرامطة.  
وسنعتمد على هذه المصادر الثلاثة في إيراد وصف مجمل لهذا الحدث:  
غادر أبو طاهر القرمطي البحرين متجها إلى مكة فوصلها في أوائل ذي الحجة، وقد اجتمع الحجاج بها من كل مكان استعداد الأداء فريضة الحج فمنعه من بمكة من الحجاج وغيرهم من دخولها وحاربوه أياما، فلما لم يطقهم، أظهر أنه جاء حجا ومتقربا إلى لله، وأنه لا يحل لهم أن يمنعوه من بيت الله، وأنه أخوهم في الإسلام، وأظهر القرامطة أنهم محرمون، ونادوا بالتلبية، واستدعى رجلا من أئمة قريش بمكة وحلف له بالإيمان الغليظة أنه قد أمنه على دمائهم وأموالهم وحرمهم، وأنه لا يؤذي أحدا منهم، وأنه ما جاء إلا ليحج، إلا أصحاب الجند والسلطان، فإنه لا يؤمنهم، وقال: أنا لا أغدر..... ولو أردت ذلك لأمنت أصحاب السلطان ثم غدرت بهم، لكن لا لؤمنهم لأنهم يشربون الخمر، ويلبسون الحرير، ويعينون السلطان الذي يحجب عن الرعية، ويظلم اليتيم، والأرملة، ويشرب الخمر، وسمع القيان فازداد الناس به اغترارا، وقبلوا أمانة، وأفرجوا له حتى دخل مكة في ستمائة فارس وتسعمائة راجل، ووضع الناس السلاح.  
فلما دخل وتمكن وسكن الناس، وثب بهم على غرة منهم، وقال لأصحابه: ضعوا السيف واقتتلوا كل من لقيتم، ولا تشتغلوا إلا بالقتل فل يزل كذلك ثلاثة أيام، ولاذ المسلمون بالبيت، وتعلقوا بأستار الكعبة، فما نفعهم ذلك، وقتلوهم في المسجد الحرام، وما زالوا يقتلونه ويقولون لهم:)ومن دخلة كان آمنا)، أفأمنون أنتم يا حمير) أما ترون كذب صحابكم، وأمروا من يصعد لقلع الميزاب، فصعد وهو يقول مستهزئا: هو في السماء وبيته في الأرض!!  
وسلب البيت، فاقتلع باب الكعبة، وكان مصفحا بالذهب، وأخذ جميع ما كان في البيت من المحاريب الفضة، والجزع وغيره، ومعاليق، وما يزين به البيت من مناطق ذهب وفضة، وقلع الحجر الأسود، ومقدار موضعه ما يدخل فيه اليد إلى أقل من المرفق، ثم جرد ما كان على البيت كسوة.  
وقد اختلف الأقوال في عدد من قتل من الناس من أهل مكة وغيرهم من سائر الأنصار، فمكثر ومقلل، فمنهم من يقول ثلاثين ألفا، ومنهم من يقول دون ذلك وأكثر، وهلك في بطون الأودية و رؤوس الجبال والبراري عطشا وضرا ما لا يدركه الإحصاء.  
أما من قتل في البيت الحرام فقد رماهم القرامطة في بئر زمزم حتى امتلأت بجثث القتلى.  
وقد أشار نظام الملك في كتابة) سياسة تامة إلا أن القرامطة عندما فاجئوا الناس بالهجوم وأعملوا فيهم السيف، ألقى كثير من الناس بأنفسهم داخل الآبار، لكي يختفوا عن أنظار القرامطة، ولا يتعرضوا للقتل، ويعد انتهاء المذبحة، أمر أبو طاهر القرمطي أصحابه بأن يلقوا بجثث من قتلوهم في نواحي مكة في تلك الآبار، فوق الأحياء المختفين فيها حتى يموتوا بدروهم.  
وبعد انتهاء هذه المذبحة أمر أصحابه بنهب الحجيج، فجمع شيئا عظيما من الذهب والفضة والجوهر والطيب، ومن متاع مصر واليمن، والعراق، وخراسان، وفارس وبلدان الإسلام كلها... وسبى من العلويات والهاشميات وسائر الناس نحو عشرين ألف رأس.  
وقد ذكر المسعودي أن القرامطة بقوا في مكة ثمانية أيام يدخلونها غدوة ويخرجون منها عشيا، يقتلون وينهبون، حتى رحلوا عنها يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة 317.  
كما أشار المسعودي أيضا إلى أن القرمطي بعد خروجه من مكة عرضت له هذيل بن مدركة بن الياس ابن مضر، وهم رجاله في الضايق والشعاب والجبال، وحاربوه حربا شديدا بالنبل والخناجر ومنعوه من السير، واشتبهت عليهم الطرق، فأقاموا بذلك ثلاثة أيام حائرين بين الجبال والوديان، وتكن كثير من النساء والرجال المأسورين من الخلاص، واقتطعت هزيل ألوفا كثيرة من الأبل والثقلة، وكانت ثقلته على نحو مائة ألف بعير (14) عليها أصناف المال والأمتعة.   
ويفهم من رواية أوردها الفاسي في كتابة (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) (15) أن أبا طاهر القرمطي لم يكن يريد في مبدأ الأمر أن يقتلع الحجر الأسود، وإنما كان يريد الاستيلاء على مقام إبراهيم، ولكن) سدنة المسجد قد تقدموا إلى حمل المقام وتغبيبه في بعض شعاب مكة، فتألم لفقده إذ كان طلبه، فعاد عند ذلك إلى الحجر الأسود فعلقه.  
والواقع أن المرء يحار عن السبب الذي دعا القرامطة إلى اقتلاع الحجر الأسود، وحمله معهم إلى البحرين، وربما نجد جواباً على ذلك عند الرحالة الاسماعيلى ناصر خسرو، الذي زار البحرين حوالي سنة 440، وكتب تقريرا مفصلا عن رحلته في بلاد القرامطة في كتابه) سفرنامه) وبين أن السبب في انتزاعهم الحجر الأسود أنهم زعموا أن الحجر مغناطيس يجذب الناي إليه من أطراف العالم، ويعقب ناصر خسروا بعد ذلك بقوله: لقد لبث الحجر الأسود في السا سنين عديدة، ولم يذهب إليها أحدا.  
وهناك نص آخر أورده القاضي عبد الجبار ينقل فيه قولا لحفص عمر بن زرقان، وهو خال أبي طاهر القرمطي، في وقعه الحرم سنة 317 فبينما هذا الرجل) واقف حذاء) البيت والسيف يأخذ الناس، وهو على فرسه يضحك ويتلو: ((لِإِيلافِ قُرَيْشٍ)) [قريش:1]، حتى وصل إلى قوله: ((وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)) [قريش:4] قال: ما آمنهم من خوفنا، ظهر الباطن يا أهل مكة حجوا إلى البحرين، وهاجروا إلى الإحساء من قبل أن نطمس وجودها فنردها على أدبارها.  
وبناء على هذا القول فأنه ربما يصح تفسير ناصر خسروا لحملهن الحجر الأسود إلى الإحساء من أنهم أرادوا أن يصرفوا الحج عن مكة إلى عاصمتهم في البحرين، وظنوا أنهم يستطيعون تحقيق هذا الهدف إذا هم نقلوا هذا المغناطيس، الذي يجعل قلوب الناس تهفوا إلى مكة المكرمة نقلوه إلى البحرين.  
وتكاد المصادر الفارسية التي اهتمت بهذا الحدث تجمع على أن القرامطة عندما حملوا الحجر الأسود إلى بلادهم قطعوه نصفين ولم يشر من المصادر العربية إلى هذا الأمر إلا ابن جبير في رحلته، الذي ذكر في رحلة أن الحجر الأسود قطع إلى عدة قطع، والمقريزي في كتابة الذي قالأن شقوقا حدثت بعد انقلاعه.  
وظل الحجر الأسود عندهم نحو اثنين وعشرين سنة، ثم حملوه وأتوا به إلى الكوفة فنصبوه في المسجد الجامع حتى يراه الناس، ثم حملوه إلى مكة وردوه في مكانه في الكعبة، وقالوا:) أخذناه بأمر ورددناه بامر).  
وكان عدد من ملوك الإسلام قد طلبوا أن يستردوه بأي مبلغ من المال يحدده) القرامطة) وبذل بعض الملوك والأمراء لهم خمسين ألف دينار، فلم يردوه، وردوه في سنة 339 بغر شيء  
وقد بعث الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي من بلاد المغرب إلى ابن طاهر القرمطي رسالة ملؤها التبديد واللعن، يقول له: [[أخفقت علينا سعينا، وأشبهت دولتا بالكفر والإلحاد بما فعلت متى لم ترد على أهل مكة ما أخذت، وتعيد الحجر الأسود إلى مكانة، وتعيد كسوة الكعبة فأنا برئ منك في الدنيا والآخرة]].  
فلما وصلت هذه الرسالة أعيد الحجر إلى مكة.

دراسات عن القرامطة

القرامطة  
نشأت أسس المعارضة الطويلة في إقليم البحرين بسبب الظروف التي لابست تطور الدولة الإسلامية، فقد جاء في معاهدة العلاء الحضرمي أنه: «هذا ما صالح عليه العلاء الحضرمي أهل البحرين على أن يكفونا العمل ويقاسمونا الثمر»، ولم تعجب أهل البحرين هذه القسمة فارتدوا مع من ارتدوا عن سيطرة المركز في المدينة، ولكن الفتوحات الأولى لفارس عن طريق البحرين جعلت هذا الإقليم جزءاً من عمليات الفتوح الكبرى وآثارها المختلفة، وفي عصر الدولة الأموية تم تجاهل هذا الإقليم تماماً، حيث غدا جنوب العراق وخاصة البصرة هو مركز التجارة والاستيراد والتصدير، مما جعل الإقليم مهمشاً على الصعيدين الاقتصادي والسياسي.

«أما الزراعة فكانت مزدهرة هي الأخرى وخصوصاً في ساحل هجر وفي جزيرتي أوال وتاروت، وتحيط بهذه المنطقة بادية كان يسكنها عبدالقيس وبكر بن وائل وتميم قبل الإسلام، وكان جل اقتصادهم يرتكز على الرعي والغزو أو أعمال القرصنة»، (القرامطة بين الدين والثورة، حسن بزون، دار الانتشار العربي، ص64). إن موارد الإقليم مهمة في الزراعة والرعي ولكنها لا تكاد تكفي الحياة الداخلية، فقد عرف هذا الإقليم بالفقر الشديد، ولكنه كان يرسل الخراج بصورة منتظمة إلى العاصمة دمشق ثم بغداد، مما جعله يتحول إلى مركز دائم للمعارضة والثورات، فأنتج الخوارج ثم القرامطة وهما أكبر حركتي معارضة في التاريخ الإسلامي والعالمي القديم. إن هذا يعود لتأثرات القبائل الفكرية والسياسية البحرينية بموجات المعارضة الكبرى التي كانت تنتجها إيران، والتي كانت تمر أو تختمر في جنوب العراق، ثم تنمو في إقليم البحرين البعيد عن السيطرة المركزية.

فقد عُرفت قبائل عبدالقيس وتميم خاصة بالصلة المستمرة بالسواحل الفارسية، نظراً لتداخل المصالح والهجرة والانتقال السكاني المتبادل على مر التاريخ، ولم تكن هذه المنطقة ذات كثافة بشرية كبيرة، فأثر فيها الفرس وحكموها ردحاً طويلاً من الزمن.

وقد تأثرت قبيلة تميم خاصة بالأفكار الثورية القادمة من فارس، وخاصة أفكار المزدكية والمانوية، وعبر هذه القبيلة تغلغلت أفكار الزهد عند بعض الشخصيات التاريخية العربية، لكن هذه القبائل وقد رأت الحكم يتركز في قريش أعلنت التمرد، وطرحت شكلاً شعبيا للحكم رفضت فيه الاحتكار القرشي، ثم تحولت هذه العملية إلى حركة سياسية كبرى، انتقلت من العراق إلى موطنها الطبيعي، ومركز قبائلها وهو إقليم البحرين، الذي قام بحماية الحركة على مدى قرون في حين كانت الحركة تذوب وتتلاشى في الأقاليم العربية الشمالية.

ولعل حركة التمرد الطويلة هذه من الأسباب التي زادت هذا الإقليم فقراً على فقره. وأخذ ينعزل عن حركة التطور الاقتصادي الواسعة في الإمبراطورية الإسلامية حينذاك. لا نستطيع أن نفعل كما يفعل المؤرخون والباحثون بالتركيز على العوامل الفكرية باعتبارها المحرك الأكبر لبعض سكان إقليم البحرين بالتوجه إلى حركات المعارضة العسكرية الكبرى، بل نرجعها إلى ظروف الفقر الشديد والشظف والبداوة والحرمان وعزل المنطقة عن التجارة المزدهرة وعن الإصلاح، الأسباب التي جعلت هؤلاء السكان يتعاطفون بسرعة شديدة مع تلك الحركات. فمن الصعب تصديق الرواية القائلة بأن أبا سعيد بن بهرام الجنابي مؤسس الدولة القرمطية في البحرين شخص يمثل أفكاراً كبيرة وناضجة، فنحن نجد الرجل يلتقي بحمدان الأشعث ثم يعتنق الأفكار التحولية هذه ويندفع إلى البحرين في ظرف زمني قصير ثم يشكل دولته العتيدة.

﴿2﴾

نجد أن أبا سعيد الجنابي كان شخصاً مغامراً يبحث عن فرصة سياسية للصعود، وهو بدلاً من أن يتجه لدعوة فكرية طويلة نراه يبحث عن قبائل الغزو والجريمة لكي يضمها إليه:

(وحين توجه أبوسعيد الجنابي بالدعوة إلى العرب أجابه بنو الأضبط من كلاب.. وهؤلاء ليسوا من قبائل البحرين القديمة.. فجمعهم أبوسعيد فضم إليهم رجالاً وساروا فأكثروا من القتل)، (اتعاظ الحنفا، المقريزي). هكذا نجد أبا سعيد وهو يشكل حركته من القبائل المجهولة ومن قطاع الطرق، وكانت أول حركة سياسية عسكرية له هي تدمير مدينة هجر، «ولم يوفق بالسيطرة عليها إلا بعد أن قطع الماء عنها وفر بعض أهلها في البحر ودخل بعضهم دعوته وخرجوا إليه وبقيت طائفة لم يفروا لعجزهم ولم يدخلوا في دعوته فقتلهم. وأخذ ما في المدينة وخربها فبقيت خراباً وصارت مدينة البحرين هي الأحساء».

وفي حين نجد الحركات الثورية والإصلاحية تقوم ببناء المدن وتشكل نهضة مدنية، نرى أبا سعيد يبدأ تاريخه بهدم مدينة عريقة، عبر تحالفاته مع القبائل الفقيرة والأعراب وتحويلهم إلى قوة عسكرية ضاربة، وجعله الغزو المدمر علامة لسياسته التخويفية.

بطبيعة الحال هناك تشنيعات كبيرة بحق القرامطة، لكن ثمة خيط من الحقيقة في هذه العمليات العسكرية. فالرجل بعد إنشائه مدينة الأحساء طور الحياة الاقتصادية عبر إصلاح المزارع ومساعدة الفقراء المحتاجين وجعل الأحساء عاصمة كهجر السابقة، وفي رأيي فإن أبا سعيد لم يفعل ذلك إلا ليؤمن الجبهة الداخلية لنظامه العسكري استعداداً لجعل سياسة الغزو المورد الاقتصادي الحقيقي والواسع للدولة. ولم يكن غزواً يؤدي إلى توسع الدولة ونمو علاقاتها وتطور مدنها وثقافتها ويشكل انقلاباً حضارياً في جسم الدولة العباسية الشائخة والمتعفنة وقتذاك، بل كان الغزو هجمات على المدن بغرض السلب والنهب، فحين غزا القرامطة البصرة سنة 307 ﻫ «نهبوها وقتلوا وسبوا أهلها»، وضعوا السيف في أهلها وأحرقوا البلد الجامع ومسجد طلحة وهرب الناس وألقوا بأنفسهم في الماء فغرق معظمهم»، (السابق).

لا نستطيع أن نفهم هذه العمليات العسكرية بغرض البناء السياسي وإنتاج بديل لنظام قديم أو نعتبرها محاولات لتشكيل نظام في حالة من البحث والمخاض، فهؤلاء الغزاة لا يحملون فكراً أو علاقات اقتصادية وسياسية جديدة، إنهم مجموعات من قبائل الغزو والإغارة، فقد كان بالإمكان حكم البصرة وإعطاء سياسة اقتصادية جديدة ومفيدة للمدينة، ولكنهم لا يملكون هذا الوعي لقراءة واقع وحياة المدينة، وبالتالي استبصار مسار الدولة العباسية وتقديم بديل لدولة إقطاعية شائخة.

أي لو كان هؤلاء متطورين فكرياً واقتصادياً لوضعوا التاريخ العربي على مسار آخر. كان البديل سوف يُنتج لو أنهم حرروا فلاحيهم البحرينيين من الاستغلال والإقطاع، ولكن نظام السخرة والعبودية واستغلال الفلاحين ظل مستمراً، فكان هناك «السادة» وهي الفئة الحاكمة التي تملك العبيد والخزائن والأراضي والمطاحن، وبقربها طبقة من الملاكين الخاصين، وفي القاعدة جمهور الفلاحين والعبيد والبدو.

كان توسع القرامطة في استخدام العبيد تعبيراً عن فقر المنطقة في إنتاج علاقات اقتصادية متطورة وثقافة متطورة، وكان الاعتماد على القبائل الرعوية المتخلفة يجسد كل ذلك.

تعبّر الاختلافات السياسية والفكرية بين الفاطميين والقرامطة عن المدى الكبير بين المستوى الحضاري والمستوى الرعوي المحدود.

وحين يقال إن القرامطة والفاطميين هم نتاج حركة واحدة هي الإسماعيلية فإن ذلك صحيح بالإجمال، فنجد أن أساس المغامرات السياسية والعسكرية متشابه في نمو هذه الحركة بفرعيها الفاطمي والقرمطي، حيث اعتمدت كلتاهما على الأفكار الإمامية الإسماعيلية، وعلى مغامرين سياسيين يتوجهون إلى مناطق التوتر الاجتماعي والسياسي، فيدّعون رسالات ويزعمون اتصالاً بالغيب.. الخ، ويقومون بتنظيم القبائل الرعوية ودمجها في حركتهم والارتكاز عليها لتشكيل دولة عبر إعطائها الغنائم.

ولكننا نجد أن مسار الفرعين جد مختلف، فبينما شكل الفاطميون حضارة وثقافة رفيعة، وتوسعوا، وأعطوا مصر ركائز لتطور حضاري عميق تال، نجد القرامطة بلا إرث ثقافي وبلا تشكيل لنهضة مستمرة، بل قاموا بإفقار المنطقة وتحويلها إلى منطقة بدوية متخلفة بشكل شامل.

﴿3﴾

وتعود هذه الأسباب، بطبيعة الحال لمستوى تطور البلدين الاجتماعي: مصر وإقليم البحرين، وأيضاً للممارسات السياسية المختلفة للجماعتين، فقد توجه الفاطميون في غالب حياتهم التاريخية للبناء السياسي والاقتصادي والفكري، في حين عاش القرامطة أغلب تاريخهم على الغزو والحروب.

وإذا كان للفاطميين مشروعهم السياسي الذي لا يحيدون عنه وهو تشكيل دولة موحدة تضم العالم الإسلامي بأكمله، في حين أن القرامطة كانوا بلا مشروع، وكانوا قد اقتربوا من بغداد العاصمة تماماً، ولكن حولوا المعركة إلى مذابح. والأمر لا يعود لقطع أحد الجسور عليهم، بل لغياب الجسر الفكري والاقتصادي مع السكان، وعدم قدرتهم على تشكيل بديل حضاري، بل ان السكان وجدوا في العباسيين على جبروتهم واستغلالهم نظاماً أكثر حماية للنفس والعرض والوجود عامة. لكن الفاطميين هم كذلك لم يستطيعوا حل التناقضات الاجتماعية التي وعدوا بحلها، لكنهم حافظوا على العلاقة بين الظاهر والباطن، بين الأحكام الإسلامية العامة وبين الوعي الغيبي الذي يؤمنون به، في حين عجز القرامطة عن تشكيل جسر بين الظاهر والباطن، بين السيرورة الإسلامية العبادية والمعاملاتية وبين أفكارهم.

وإذا قيل إن الدول التي جاءت بعد القرامطة والفاطميين أزالت آثارهم ومحت سيرتهم من ذاكرات الأجيال، وهذا صحيح، ولكنها لم تستطع أن تزيل التاريخ الفاطمي والإسماعيلي، نظراً لكثرة التأليف والإنتاج فيه، واستمراره التاريخي ولكن القرامطة لم يورثوا شيئاً. ولهذا لا نجد أبنية لهم أو مؤسسات اقتصادية وعمرانية باقية، مثلما نجد للديلمونيين مع بُعد الحقب بيننا وبينهم ورغم استمرار القرامطة على مدى أكثر من قرنين. من المؤكد أن ذلك يعود لطبيعتهم الاجتماعية كجماعة مغامرة سياسية ارتكزت على الرعاة والأعراب المتخلفين، وكان قرامطة البحرين أفضل حالاً من قرامطة سوريا الذين كانوا أكثر عنفاً، في حين كانت بداية الحركة على يد حمدان بن قرمط في جنوب العراق أكثر تطوراً، لكونها تحولت إلى حركة تعاونية فلاحية، وهذا يعود كذلك إلى المستوى الحضاري العراقي، قياساً بالجزيرة العربية وهيمنة البداوة عليها.

وفي دراسة موثقة بعنوان «الفاطميون وقرامطة البحرين»، كتبها و. ماد لونغ، وهو أستاذ العربية في جامعة أكسفورد، ومن المختصين القياديين في الدراسات الإسلامية، وهو مرجع مختص بالحركات الإسلامية في العصور الوسطى كما تعرّفه دار النشر، يثبت فيها تباين القرامطة عن الفاطميين، ويفند الصلة بينهما.

في هذا البحث نجد أن الارتباطات بين الحركتين هي ارتباطات فكرية في بداية الأمر، ثم ما لبثت كل حركة أن نمت في منطقتها، بحيث إن الفاطميين تحركوا ليس على المستوى العسكري فحسب، ولكن على مستويات المعرفة والعلوم والإنتاج الثقافي عموماً، فظهر مفكرون وباحثون وفلاسفة، ثم امتدت الحركة إلى سوريا، وشمال إيران، وحين وقعت هذه الحركة في مناطق جبلية وقروية ضيقة، وكان رمزها قلعة الموت، أصيبت بما أصيبت به الحركة القرمطية في البحرين من ضيق فكري وقصر نظر سياسي، فاعتمدت الإرهاب والاغتيال أداة للتغيير. وعموماً فإن الحركة الإسماعيلية ذاتها لم تطرح برنامجاً اجتماعياً تقدمياً لتطور العرب والمسلمين، وتجمدت عند المستوى التقليدي للحركات الدينية.

وتبدو ضخامة أخطاء القرامطة في كثرة الحروب والموقف من الدين، والوجهان معبران عن رؤية داخلية مأزومة. ومنذ أن تكونت بنية اقتصادية في الإقليم والدولة توجه طاقتها نحو الحرب التي اتسعت رقعتها، من شن الهجمات على العراق وسوريا حتى مصر، ثم السيطرة على طرق الحجيج، وكل هذه العملية الاستنزافية هي من أجل المال، نظراً لأن دولة القرامطة كانت ذات موارد محدودة ومشروعاتها العسكرية لا تتوقف.

وفي الحروب لم تكن لها مواقف ثابتة، فكانت هجماتها الأولى لسلب المدن العراقية الجنوبية، ولم تطرح على السكان تبديل نظام الحكم، والعمل من أجل مشروع سياسي جديد، لأن حكام الدولة لا يمتلكون أي تصورات مهمة.

واضطراب المؤرخين والباحثين بكون حركة القرامطة منبثقة من الاتجاه الاسماعيلي أو الاتجاه الحنفي، أو أنها جاءت تحت تأثير الثورة البابكية التي انفجرت ضد المأمون ومن بعده من الخلفاء، فكل هذه المحاولات للبحث عن شخصية فكرية هي غير مجدية لأن الحركة بلا هوية عميقة، فهي نتاج مجموعة سياسية عامية، ازدادت عاميتها وأميتها الفكرية مع اندماجها المتواصل مع أعراب الجزيرة، واعتمادها على أسلوب عيشهم المتكرس بالغزو.

ويبدو غياب المشروع والأمية والعدمية الثقافية من اعتماد العنف وسيلة للبقاء، وكذلك الهجوم على الدين، ويبدو الهجوم هنا ليس نقداً أو تحليلاً واكتشافاً لجذور الأديان في المنطقة، ومعرفة سببياتها وأهدافها، بل هي عملية إنكار أمية لها، تتجاهل شعائرها وقراءة أفكارها، ثم تصبح استهزاءً بها وعنفاً ضد مظاهرها. إنها أرستقراطية من نوع جديد، فهي قطع مع التراث بصورة دكتاتورية، وهي تعال على المؤمنين ومقدساتهم، وسيطرة عنفية على حياتهم وتوجيهها نحو الحرب.

﴿4﴾

يعتبر عبدان هو المؤسس النظري للحركة القرمطية، فمن هو عبدان؟ تحت عبارة من هو عبدان يقول المحقق عارف تامر كمقدمة لكتاب «شجرة اليقين»: «كل ما نعرفه أن انتساب هذا الداعي للدعوة الإسماعيلية قد تم على يد حمدان بن الأشعث المعروف بـ«بقرمط» ومما نعرفه عنه أيضاً انه تزوج ابنة حمدان، وأنه تثقف في مدرسة الدعوة بسلمية - سورية- وكان من ابرز الدعاة وأغزرهم علماً وفلسفة، ومن الجدير بالذكر انه قُتل أخيراً على يد (زكرويه بن مهرويه) الذي قاد جيوش القرامطة في الدور الأول وأزاح من أمامه المعارضين ومنهم عبدان».

تصاغ أفكارُ عبدان في كتابه «شجرة اليقين» بأسلوب غامض مكرور، تختلطُ فيه الفصحى والعامية، وهو يجمع بين شخوص الغيب من الإله والأنبياء والملائكة والشياطين والأولياء في عجينة غيبية تمتد من السماء إلى أغوار الأرض السحيقة، جامعة بين النصوص الدينية القرآنية خاصة بتلفيق واسع، وبين أفكار غريبة وتحولات باطنية للأئمة القادرين على كل شيء.

يبدأ عبدان كتابه بجعل سطوره معبرة عن الحقيقة المطلقة التي لا تعرف سوى اثنين أما مصدق تام فيكون من المؤمنين الداخلين الجنة وأما من المكذبين الأشرار الذين يدخلون النار: «وبعد.. فإن من ينظر في آيات كتابنا هذا الدالة على الآفاق والأنفس ويطلب حقائقها، ويقف على علومها، ومطابقتها للشرائع والأحكام، ويتقبلها بالشكر والقبول.. يكون في جملة من أطاعوا الله جل ذكره.. (...).. وإن كل من ينظر في هذه الآيات الموجودة في الآفاق والأنفس، والدلالات الباطنة فيها، ولا يطلب حقائقها وتأويلاتها من أرباب الدين، وأصحاب اليقين، فيكون من الأبالسة والشياطين الذين استوجبوا غضب الله وخذلانه وحرمانه، كقوله تبارك اسمه: «إذ قلنا للملائكة».

يحدد عبدان أن بيانه هو بيان جماعي ينطق هو به لكنه منتشر يحدد تأويله أرباب الدين، فهناك جماعة هي وحدها القادرة على تحديد الحقيقة وإدخال الناس فيها. وهنا يستشهد بآية من القرآن، فيدغم القول البشري بالقول القرآني: «إذ قلنا للملائكة»، رغم أن الآية ليست ذات صلة بالرأي الذي عرضه، لكن عبر هذه الآية الُمقحمة يغدو أمر الجماعة المستورة الباطنية هو أمر السماء، عبر إنزال سياسي على العبارات. ثم يضيف: «اسجدوا لآدم» أي اخضعوا للناطق، وناطق كل دور من الأدوار مثل آدم - ومعنى آدم أي انه خلق من أديم الأرض وأديم الأرض هو ظاهرها. «فسجدوا إلا إبليس»، ففسق عن أمر ربه - أي خرج عن أمر الناطق وأصبحت ذريته من (القشرية) وهم الذين وضعوا أنفسهم في غير موضعها، وعندما أخبرهم جلّ ذكره فيما ينظر إلى ما خلقه في الآفاق والأنفس من الدلالات والآيات، لم يتفكروا فيها، ولم يطلبوا حقائقها. فتبرأ منهم، وحرمهم من رحمته ورضوانه.

يحيلُ عبدانُ آدمَ، كما يُقال في الوعي الديني المشرقي، بأنه أبو البشر والأنبياء، إلى ناطق، وإلى زعيم سياسي قائد، وإلى منتمٍ إلى تلك الجنة السماوية، ويمكن عبر تأويل معاصر أن نقول إن تلك الجنة هي أرض الفلاح المستلبة، وأن آدم هو بداية للناطقين باسم تلك الحقيقة الأبدية التي تسير فوق الزمان والمكان، ولكل ناطق خصمٌ يعاديه وينافسه وخصم آدم هو الشيطان، والهدف هو الجنة السماوية أو الأرض الزراعية والسياسية المعاصرة.

وتعبرُ هذه الثنائيةُ الصراعيةُ عن قوى الشر والخير المتضادة، وقد تحولت إلى رموزٍ مجردةٍ، لا تتبلورُ بمضمون معين، وهي خاضعةٌ لمنطقِ السارد، وهو عبدان، الذي يحيلُ كلَ رموز آدم، أي كل رموز الخير وهم الأنبياء التالون والأئمة وأصحابهم ومن والاهم، يحيلهم إلى الإيجابي والخلاق في التاريخ أما عنصر الشر وتجلياته فهم الأسماءُ الشريرةُ التي سيذكرُها لاحقاً، وهي التي ستُعاقب في جهنم وهي الرمز المضاد للجنة، في حين يكون موضع الأخيار هو العودة إلى تلك الجنة، وهي في الحقيقة تملك الأرض السياسية والسيطرة عليها.﴿5﴾

نتابع أفكار منظر الثورة القرمطية عبدان الذي يقول: «وقد جاء انه لابد لكل ناطق من النطقاء السبعة من إبليس يكاشفه ويعاديه ويضل أمته عن الصراط المستقيم، والدليل على ذلك قصة آدم المكررة سبع مرات في القرآن الكريم، وقد أراد جل ذكره من تكرارها سبع مرات أن يذكر بأن مثل آدم سبعة نطقاء.. أولهم آدم وآخرهم الناطق..»، (شجرة اليقين).

يجعل عبدان التاريخ البشري متداخلاً مع التاريخ الغيبي، فإضافة إلى صورة الإله المتحكمة في كل شيء التي يشكلها عبدان، فإن القرآن يمثل الكتاب السري للتعريف بتلك الحركة المتداخلة بين السماء والأرض، بين الإله والبشر، ولهذا فإن القرآن في إشاراته الرمزية تلك، يعرض قصة آدم سبع مرات لا أكثر ولا أقل لتبيان عدد الناطقين الذين سيظهرون للناس، دون أن يقوم القرآن بعرض ذلك بشكل مباشر! ولا يرتبط هؤلاء الناطقون السماويون بأي سببية تاريخية أو بأهداف محددة، فهم يظهرون بتسلسلهم السباعي فقط، وكأن هذا التسلسل السباعي هو من يحدد التاريخ الغائب الملامح والأسباب، ويقوم عبدان هنا بإدخال حركته السياسية في ذلك التسلسل الإلهي الغيبي المفروض على البشر، فالقائم هو تتويج لسلسلة الأنبياء وختامهم!

ثم يقوم بذكر هؤلاء السبعة، فإبليس آدم هو عزرائيل وشيطانه قابيل، وإبليس نوح حام، وقد جاء في الخبر أنه رأى عورة أبيه وهو نائم، فأطلع على ذلك أخوته كنعان وسام ويافث، ولم يستره.. والمعنى: إنه كشف عما وصل إليه من أبيه من العلم الذي لا ينبغي كشفه إلا لأهله، وقد نصحه أبوه فلم يرتدع، وأصر على المعصية، ولم يتب فاكتسب مقام الإبليسية، وغرق في الطغيان.

إن صورة الشر لا تكتفي بنموذج غيبي بل تشكل نموذجاً إنسيا كذلك، فعزرائيل الملاك المكلف بأخذ الأرواح يتحول عند عبدان إلى رمز للشر، ولم يجد في فترة آدم سوى قابيل ليلصق به وكالة الشر الأرضي. ثم جعل إبليسَ نوح هو ابنه حام، كما جاء في قصة التوراة الأسطورية لتفسير الأجناس البشرية وهم: سام وحام ويافث. ويرتكب عبدان خطأً تاريخياً هنا حين يجعل كنعان أخاً منهم، وهو اسم لشعب سامي من الجزيرة رحل إلى الشام.

إن الأنبياء والشياطين المتصارعين يرتبطون بلوحة مجردة، تشكلها عملية الصراع بين التبعية للحاكم المطلق الذي هو الإله، وبين الشيطان الذي يريد تخريب تلك التبعية، والطرف الأول يدعو لجوانب معينة ويغدو نقيضها هو المعاصي. ثم تغدو هذه الأوامر الإلهية شريعة بعد آدم لدى موسى ثم تصير عند عيسى هي أمر وشريعة.. الخ. وكل هذا يجري في فضاء غيبي، وعبر صراع إلهي شيطاني تتداخل فيه العفاريت والنجوم والكواكب والأرواح في تكوينات غامضة، وتتجلى بعد ذلك في الحديد الأصم ثم ترتفع درجة في النبات ثم تتجلى أخيراً في الإنسان. «إن المعادن موات ليس فيها من الأرواح شيء، قوامها من التراب والماء والهواء والنار، وقوام النبات من القوة النامية، وإنها على أربع مراتب أسفلها وأقلها الحشيش وهو مقابل الأرض وثانيها في الحيوان وهو مقابل الماء، وثالثها في الأشجار وهي مقابل الهواء، ورابعها في البهائم والسباع وهي مقابل النار».

ويتم ترتيب العالم غير المعدني بشكل رباعي له علاقة بتقسيمات إخوان الصفا، فالمرتبة الأولى للسباع أقل الأرواح والأقرب للتراب. ثم في السمك وهي مقابل الماء، ثم في الطيور وهي مقابل الهواء، ورابعها في «الأطفال والمجانين وبعض القشرية وهي مقابل النار». هذه هي الروح الحسية، أما الروح الناطقة للبشر فتنقسم كذلك إلى أربع مراتب: «أسفلها وأقلها الأطفال وبعض القشرية المهملين وهي مقابل التراب فلذلك قلنا ان التراب دليل على البهائم، وثانيها في المستجيبين والمأذونين والأجنحة الذين هم جن بالقوة، وفي أضدادهم القشرية الذي هم شياطين بالقوة، فلذلك كلفوا بطلب التأويل... وهي مقابلة الماء، وثالثها في اللواحق، وفي أضدادهم المرتدين والفلاسفة وفقهاء القشرية الذين هم أبالسة بالقوة، وهي مقابل الهواء، ورابعها في الأئمة وفي أضدادهم الشياطين بالفعل وفي مقابل النار»، (شجرة اليقين).

ويشكل عبدان هنا تراتبية ميتافيزيقية غرائبية عجيبة كما فعل سابقاً، فالروح الغيبية تتمظهر تدريجياً وهي تصارع العفاريت، فتغدو أقرب للتراب وهو شكل محايد ويتمظهر ذلك في الأطفال والقشرية المهملة وهم أهل السنة هنا، ويتضح هنا الطابع الطائفي لهذا الوعي، فتغدو العامة غير الإمامية وغير الباطنية الجوهرية من فصيلة القشور، كما أن القشرية هذه تكبر في علاقتها بالشياطين لتصل إلى الفلاسفة والفقهاء، لكن أئمة الباطنية هم التجسيد الأعلى للروح، ويصارعهم الشياطين المكتملون.

 إن ما تشكل بوعي المثقفين المدنيين الإماميين لدى إخوان الصفا يغدو في الحركة القرمطية، وقد تحولت إلى حركة عامية، إلى أشكال من الهلوسة والاسقاطات الفجة على الأشياء وحركة الحياة والوعي عبر منطق شكلاني.

عبدالله خليفة

في أواسط عام 311 للهجرة وصل الى الأحساء وفد رفيع المستوى، يحمل كتاباً الى أبي طاهر الجنابي من خليفة بغداد المقتدر العباسي، طالبا فيه إطلاق الأسرى، وإيقاف التعديات التي يقوم بها القرامطة خصوصاً، قتل الحجيج، واضراب الأمصار، وحرق المساجد، فقد اجتاحت بغداد موجة عارمة من مشاعر السخط والفزع، بعد اعتداء القرامطة على الحجاج.. وكان فيهم خلق كثير من أهل بغداد، وهم في طريق العودة الى العراق [[1]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a1)  في منطقة تسمى الهبير.

أمر أبو طاهر بإكرام الوفد، وإطلاق الأسرى وإنفاذهم الى بغداد، وطلب من الوفد إبلاغ الخليفة المقتدر رغبته في الاستيلاء على البصرة، والأهواز في مقابل الكف عن التعرض للحجيج، وحمّلهم كتابا يتضح من خلاله مستوى الضعف الذي وصلت اليه الدولة العباسية حينها، واللامبالاة التي يبديها القرامطة لتهديدات الخليفة المقتدر، فقد جاء فيه وصف الخليفة المقتدر: بقائد الأرجاس المسمى بولد العباس، وبعد ذلك يذكر أبو طاهر القرمطي الأسباب التي دعته الاعتداء على قوافل الحجيج، ويعيب على المقتدر تسمية نفسه بالمقتدر بالله، فيقول: أي جيش صدمك فاقتدرت عليه، أم أي عدو ساقك فابتدرت اليه؟. كما تضمنت الرسالة تبريرات أبي طاهر لأعماله على شكل مناظرة، يقول أبو طاهر:

«فأما ما ذكرت من قتل الحجيج واضراب الامصار، واحراق المساجد فوالله ما فعلت تلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس، وادعاء طوائف منهم انهم أبرار، ومعايشتي فيهم أخلاق الفجار، فحكمت عليهم بحكم الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون). خبرني أيها المحتج لهم -أي المقتدر - والمناظر عنهم، في أي آية من كتاب الله او اي خبر عن رسول الله http://www.qatifoasis.com/images/prefix/a1.gif إباحة شرب الخمور، وضرب الطنبور، وعزف القيان، ومعانقة الغلمان، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام، وحووها من وجوه الحرام»؟.

وختم أبو طاهر سليمان بن ابي سعيد الجنابي رسالته دعوة الخليفة العباسي بعدم اللجوء الى التهديد، بل اعزم على ما أنت عليه عازم، واقدم على ما أنت عليه قادم. وبعد أن علم أبو طاهر بامتناع الخليفة العباسي المقتدر عن قبول عرضه المتضمن طلب تمكينه الاستيلاء على البصرة، والأهواز في مقابل الكف عن التعدي على الحجيج، قرر استئناف حملاته التي لم تتوقف حتى بسط نفوذه على الكوفة، فهرب الناس الى واسط، وبغداد ومكث في الكوفة سبعة عشر يوما يدخل البلدة فيقيم بالجامع الى الليل، ثم يخرج فيبيت في عسكره، وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال، والثياب وغير ذلك، ثم عاد الى الأحساء، ثم سار الى مكة حيث سيقوم بعدها بحملة تستمر قرابة السنتين يمزق فيها جيوش العراق وتطأ خيله أطراف فارس، والشام ولم يقو على ردعه أحد.

أظهر أبو طاهر الجنابي في هذه الحملة قوة البأس والشجاعة، وشهد له أعداؤه حضوراً في مقدمة كل الحملات والمعارك التي خاضها جيشه المكون من ألف وخمسمائة، أو قيل ألفين وسبعمائة مقاتل، فيهم سبعمائة فارس وثمانمائة راجل وكانت جيوش الخلافة التي قابلوها أقلها ستة آلاف، وأكثرها أربعون ألف مقاتل، حتى ان المقتدر لما سمع بعدة جيشه، وجيش القرامطة قال: لعن الله نيفا وثمانين ألف يعجزون عن قتال الفين وسبعمائة [[2]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a2) . هذا هو أبو طاهر الذي وصلت في عهده الدولة القرمطية الى أوج قوتها، وفترتها الذهبية.

الأحساء في عهد القرامطة:

تقع مدينة الأحساء في وسط الصحراء. ولبلوغها عن أي طريق، ينبغي اجتياز صحراء واسعة، والبصرة أقرب البلاد الاسلامية التي بها سلطنة الى الأحساء، وبينهما خمسون فرسخا[[3]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a3)  وهي مدينة سواد ايضا، ولها قلعة، ويحيط بها أربعة أسوار قوية متعاقبة من الجص المحكم البناء، بين كل اثنين منها ما يقرب من فرسخ وفي المدينة عيون ماء عظيمة، ووسط الحصن مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التي في المدن الكبيرة، والبحر على مسيرة سبعة فراسخ من الأحساء الى ناحية الشرق، فاذا اجتازها المسافر وجد البحرين وهي جزيرة طولها خمسة عشر فرسخاً.

هذا ما سجله لنا الرحالة المؤرخ ناصر خسرو من ملاحظات في كتابه (سفرنامه) عن الأحساء من حيث الموقع والتحصين حين زارها في رحلته التي دامت سبع سنوات [[4]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a4)  وهو من القلائل الذين كتبوا بموضوعية عن الدولة القرمطية في الأحساء. نتابع ملاحظات الرحالة ناصر خسرو عن الأحساء في المجال الديني والاقتصادي والتأثير الكبير لأبي سعيد الجنابي مؤسس الدولة [[5]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a5)  ـ دولة آل الجنابي ـ وان كان آل الجناب في فترة من فترات الضعف قد دعوا لأحد خلفاء بني العباس كولاة لمقاطعة تابعة للدولة العباسية. أما لقب القرامطة فما أخاله إلا لقب أطلقه مناوئو القرامطة على آل الجنابي نكاية بهم. يقول ناصر خسرو:

الحكم في هذه السلطنة التي لم تسمٌَ تدار باسم امام غائب في بلاد الروم [[6]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a6)  ولكن شريفهم وسلطانهم ابو سعيد الجنابي قال: إني عفيتكم من الصلاة والصوم، ودعاهم الى ان مرجعهم لا يكون إلا اليه، وهم مع ذلك يقرون بمحمد المصطفى وبرسالته [[7]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a7) . اذن كانت الامامة في يد ابي سعيد وانتقلت اليه من الامام الغائب في بلاد الروم.

بعد وفاة ابي سعيد بني له قبر جميل، وعلى باب القبر حصان مهيأ بعناية، عليه طوق ولجام، يقف بالنوبة ليلا ونهارا يعنون بذلك ان أبا سعيد يركبه حين يرجع الى الدنيا [[8]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a8)  ويضيف: وليس في مدينة الحسا مسجد، ولا تقام بها صلاة او خطبة، الا ان رجلاً فارسياً اسمه "علي بن احمد" بنى مسجدا وكان يتعهد الحجاج الذين يبلغون الأحساء... واذا صلى احد فانه لا يمنع، ولكنهم انفسهم لا يصلون [[9]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a9) .

اما الاقتصاد عند آل الجنابي فهو مميز، ومثير للاعجاب، ان صح ما نقله لنا الرحالة ناصر خسرو، فهو يقول: البيع والشراء، والعطاء، والأخذ يتم هناك "في الأحساء" بواسطة رصاص في زبيل يزن كل منها ستة آلاف درهم، وهذه العملة لا تسري في الخارج، وفي الحسا تباع لحوم الحيوانات كلها: من قطط، وكلاب، وحمير وبقر، وخراف وغيرها، ويوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه، وينسجون هناك فوطا جميلة، ويصدرونها للبصرة وغيرها. وفي الحسا تمر كثير، حتى انهم يسمنون به المواشي، ويأتي وقت يباع فيه أكثر من ألف (منٌ) والمن يساوي وزن مائتين وسبعة وخمسين درهما وسبعة دراهم" بالاضافة الى نظام دعم الفلاحين والصناع وتوفير رؤوس الأموال لهم لتشجيعهم على العمل والانتاج. نترك التفصيل عن هذا الجانب حيث سيذكر لاحقا في الحديث عن تأسيس الدولة.

ابو سعيد وتأسيس الدولة الجنابية:

ظهر ابو سعيد الجنابي القرمطي في البحرين سنة ست وثمانين ومائتين، "وكان لشخصيته الطموحة المغامرة المتنقلة من مكان الى مكان والداعية للثورة من جنابة الى الكوفة الى البحرين"[[10]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a10)  ، اكبر الاثر في تأسيس الدولة، وذكر المقريزي عن ابي سعيد ان اصله من الفرس، سافر الى سواد الكوفة وتزوج من قوم يقال لهم بنو القصار.

استطاع ابو سعيد استمالة اهل البوادي واخضع القطيف وضواحيها لسلطانه، وسرعان ما توجه الى هجر، فزحف عليها غير ان قوة تحصينها حال دون سقوطها في قبضته في اول الامر وفي ذلك يقول المقريزي: (ولم يمتنع عليه الا هجر وهي مدينة البحرين ومنزل سلطانها وبها التجار والوجوه فنازلهم شهورا يقاتل اهلها، ثم وكل بها رجلا، وارتفع فنزل الاحساء وبينها وبين هجر ميلان، فابتنى بها دارا وجعلها منزلا، وتقدم في زراعة الارض وعمارتها، وكان يركب الى هجر ويحارب اهلها، ويعقب قومه على حصارها) [[11]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a11) .

لقد كان ابو سعيد على علم تام بأن جيوش الخلافة تحتاج الى وقت غير قصير لكي تصل الى مناطق نفوذه، لذا شرع وهو يحاصر هجر. (دام حصارها سنة ونيف من الشهور) في بناء مقر جديد له في الاحساء على بعد ميلين من هجر، ثم بدأ في الزراعة واخضاع القبائل، حيث خضع له بنو عقيل، واجابه بنو الاضبط من كلاب، ولما اجتمع له العرب مناهم ملك الارض كلها، فتغلب على اهل هجر وبدأ نهضته الفعلية اذ قام بمساعدة الفلاحين بطحن حبوبهم مجانا في مطاحن مملوكة للسلطان، والغىالاعشار، واقرض الفلاحين المال اذ (افتقروا دون فائدة) وقام بمساعدة الملاكين في اصلاح بيوتهم وطواحينهم مجانا [[12]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a12)  ، وكذا دعم الصناعة اليدوية عن طريق امداد الصناع بالقروض الطويلة الأمد اللازمة لشراء الآلات دون فائدة.

كان أول اصطدام فعلي لأبي سعيد مع جيوش الخلافة سنة 287هـ وهي السنة التي هزم فيها جيشا بقيادة العباس بن عمر الغنوي بعد ان اقترب القرامطة من نواحي البصرة ونهبوا وسلبوا ما وجدوه في طريقهم. وقد امر المعتضد باختيار رجل ينفذه الى البصرة، وعزل العباس بن عمر الغنوي عن بلاد فارس وأقطعه اليمامة والبحرين، وامره بمحاربة القرامطة وضم اليه زهاء ألفي رجل، سار العباس الغنوي الى البصرة واجتمع اليه جمع كثير من المتطوعة والجند والخدم ثم انطلق منها الى ابي سعيد الجنابي فلقيه الأخير وجنوده مساء وتناوشوا القتال.. وحمل الجنابي ومن معه على أصحاب العباس فانهزموا، وأسر العباس، واتى الجنابي على ما كان في عسكره [[13]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a13) .

بعد هذه المعركة الهامة التي خاضها ابو سعيد ضد الجيش العباسي، عاد ليكمل مسيرته في تطوير الصناعة والزراعة باتجاه تحقيق الاكتفاء الذاتي، ويدلل على ذلك الممارسات التقشفية والضابطة للاوضاع الاقتصادية، والاجتماعية، ويصف المقريزي ذلك قائلاً: (حتى بلغ في تفقده أن الشاة اذا ذبحت يتسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسم لهم، ويدفع الرأس والاكارع، والبطن الى العبيد والاماء، ويجز الصوف، والشعر من الغنم ويفرقه على من يغزله، ثم يدفعه الى من ينسجه عبياً وأكسية، وغرائز وجوالقات ويفتل منها حبال، ويسلم الجلد الى الدباغ، ثم الى خرازي القرب والروايا والمزاود، وما كان في الجلود يصلح نعالا وخفافا فأعمل منه ثم يجمع ذلك كله الى خزائن، وكان في الوقت نفسه قد جمع الصبيان في دور وأقام عليها قوما، وأجرى عليهم ما يحتاجون اليه، ووشمهم لئلا يختلطون بغيرهم، ونصب لهم عرفاء، وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان، فنشأوا لا يعرفون غير الحرب) [[14]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a14) . ومن الجدير بالذكر هنا ان العباس الغنوي حالما وصل الى بغداد وسلم رسالة فارغة من ابو سعيد الى المعتضد الذي فهم مغزاها بقوله: والله ليس فيه شيء وانما اراد ان يعلمني اني انفذتك اليه في العدد الكثير، فردك فردا.

مات المعتضد في العام التالي وانشغل خليفته المكتفي بحروب الشام وقلاقلها، تاركا المجال لأبي سعيد ليوطد اركان دولته الوليدة [[15]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a15) . هذه هي التركة التي خلفها ابوسعيد الجنابي لولده ابو طاهر بن ابي سعيد الجنابي، والذي كان محظوظا، حيث خدمته الظروف فأكمل ما أنجزه ابوه، الذي قتل سنة 301 هــ في الحمام، قتله غلام له غيلة، وقبل ان يصل خبر مقتل ابي سعيد كان المقتدر خليفة المكتفي قد أرسل كتابا الى أبي سعيد فيه طلب المهادنة ووقف المناوشات بين الطرفين، أشار على المقتدر بذلك وزيره علي بن عيسى فأخذ بنصيحته [[16]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a16) .

وصل الكتاب الى نائب أبي سعيد آنذاك وهو ابنه أبو طاهر، فجاء الجواب من هجر غامضاً فيه الكثير من المراوغة التي ساعدت على منع هدنة جديدة امتدت قرابة عشر سنوات تمكن خلالها القرامطة بقيادة ابي طاهر من ترتيب أمورهم الداخلية. فلم يصطدموا بجيوش الخلافة حتى عام 312 هــ [[17]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a17)  حيث بدأ ابو طاهر يتعرض لقوافل الحجاج ويقتل حراسهم، وقد أسر عدداً كبيراً منهم، وغنم كل أموال السلطان التي كانت معهم. يقول محي الدين اللاذقاني: وأخذت القرامطة الشمسية وجميع ما كان للسلطان من الجواهر الظرائف وأخذوا من أموال الناس ما لا يحصى، وتابع ابو طاهر عادته السنوية بقطع طريق قوافل الحج حتى وصل به الامر الى غزو الكعبة نفسها سنة 317 هـ، وحيث استولى على محتوياتها واقتلع الحجر الاسود وعاد به الى هجر [[18]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a18) .

ولابد من ذكر ملاحظة هنا وهي ان القرامطة لم يكونوا اول من قطع طريق الحجيج، وكذا الكلام بالنسبة لغزو الكعبة ومحاولة اقتلاع الحجر الاسود، فقد سبق لقبيلة بني سليم قطع طريق الحج لسنوات عديدة قبل ظهور القرامطة أشهرها سنة 230هـ، وفي سنة 251هـ قطع بنو عقيل طريق الحج وغيرها من القبائل مثل طي والمنتفق. ولم تكن الدوافع لدى هؤلاء ذات صلة بالعقائد، لا عند القرامطة ولا عند القبائل الاخرى. واستناداً الى الأزهري كما جاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي وغيره، بأن غالبية القرامطة في القبائل البدوية الصحيحة، وأصحاب الحرف في المدن وهؤلاء لا يعنيهم الدين في كثير أو قليل، لأنهم يتعاملون معه بالحدود السطحية التي يسهل عليهم فهمها [[19]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a19) .

ان قطع طريق الحجيج مهنة مربحة تدر أموالا منذ مطلع القرن الثاني للهجرة، وان القبائل كانت تتصارع للفوز بهذه المهنة، وأبو طاهر القرمطي نفسه كان حارسا لطريق الحج منذ سنة 328هـ، وكان يتقاضى مخصصات مالية من خليفة بغداد لقاء قيامه بهذا العمل. اما عن الحجر الأسود فقد جاء في الحاشية الرابعة في كتاب أخبار مكة:انه قد أزيل الحجر الاسود عن مكانه غير مرة من جرهم، والعمالقة، وخزاعة، وأزاله القرامطة عام 317هـ واختلف المؤرخون حول من أرجعه ومتى؟. قيل أعاده الخليفة العباسي المطيع لله الى مكانه عام 339هـ. وفي عام 363 دخل الحرم وقت القيلولة رجل رومي متنكرا، فحاول قلع الحجر، فابتدره يماني طعنه بخنجره فألقاه ميتا.. وفي آخر شهر محرم عام 1351هـ وقع آخر اعتداء على الحجر الاسود إذ جاء أفغاني فسرق قطعة من الحجر الأسود وسرق قطعة من ستار الكعبة، وقطعتي فضة من المدرج الفضي فأعدم عقوبة له وردعاً لأمثاله، ثم أعيدت القطعة المسروقة يوم 28 ربيع الثاني من العام المذكور الى مكانها، فوضعها جلالة الملك عبد العزيز آل سعود [[20]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a20) .

بعد هذا الاستطراد نعود الى حديثنا عن دولة آل الجنابي.. إن مرحلة أبي طاهر كانت فترة ذهبية لقرامطة البحرين، وطدوا فيها سلطانهم في الأحساء، والقطيف والبحرين، واستولوا على عمان مرات متتالية بطلب من أهلها، كما أنهم كانوا يتقاسمون الإشراف على البصرة مع العباسيين، وكان لهم ديوان بميناء البصرة ورجل يأخذ المكوس باسمهم، ذكر ذلك المقدسي في كتابه (احسن التقاسيم) وقد استولى ابو طاهر على الكوفة عدة مرات وتركها مختارا لعدم ثقته باهلها [[21]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a21)  كما استولى على الكوفة والأنبار بل لقد اقترب من فتح بغداد لولا قطع القنطرة فتوجه الى مدينة "هيت" وواصل زحفه حتى سنجار. وكان في كل ذلك مستفيدا من تلك الجيوش العباسية وتشرذم الولاة، وتنافس الزعماء والقادة، اذ لم يكن لبني العباس الا الاسم فقط، وحين عاد أبو طاهر الى عاصمته هجر قال [[22]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a22) :

أغركم مني رجوعي الى هجر= فمن مبلغ أهل العراق رسالة

سأضرب خيلي نحو مصر وبرقة= أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم

فعما قليل سوف يأتيكم الخبر = بأني أنا المرهوب في البدو والحضر

الى قيروان الترك والروم والخزر= فلا أبقي منهم نسل أنثى ولا ذكر

ان الحروب التي خاضها أبو طاهر والقرامطة بشكل عام لم تكن فتوحات ولا نشراً لدعوة، إنما هي غزو لزيادة موارد الدولة المالية، فعلى الرغم من وجود النخيل الكثير في المنطقة التي سيطر عليها القرامطة، وعلى الرغم من خصوبة الأرض النسبية التي استخدم القرامطة لزراعتها ثلاثين ألف عبد زنجي وحبشي، عدا الفلاحين المحليين وملاك الأرض الزراعية من غير آل الجنابي ووزرائهم من آل سنبر، فان مدخول الدولة من الزراعة كان أقل بكثير من مداخيل مكوس حماية طريق الحجيج، ومكوس سواد الكوفة والبصرة، ومن رسوم المرور التي تأخذ من السفن التي تبحر من الخليج، والضرائب السنوية القادمة من عمان، وعائدات الجزية المفروضة على البدو، وحصة الحكام من صيد اللؤلؤ اضافة الى الغنائم التي كانت تأتي بها السرايا من الغزوات التي تشنها في كل اتجاه. أي أن واردات دولة القرامطة من الزراعة لم تكن أكثر من 2% من مجموع وارداتها.. ولعل ذلك هو الذي يفسر هذا السعي للحرب. [[23]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a23)

بعض المفارقات في تاريخ القرامطة:

لابد هنا من ذكر بعض المفارقات في تاريخ القرامطة، التي أقل ما يقال عنها انها محيرة، مثيرة للتساؤل، وان ما سجله التاريخ ليس الحقيقة كلها؟! هناك نص في "تاريخ بغداد" يفيد بأن أبا حنيفة كان يفتي بالقتال الى جانب القرامطة وهذه الفتوى تجعلنا نعيد النظر في كل الاتهامات الالحادية التي الحقت بالقرامطة.. فهذا يعني ان تفسيرهم للدين على غلوه لا يبعدهم كثيراً عن حظيرة الاسلام.. وتأييد ابي حنيفة للقرامطة غير مستغرب، فقد كان قبل ذلك كما يقول الزمخشري في الكشاف: يفتي سرا بوجوب نصرة الامام الثائر زيد بن علي [[24]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a24)  الذي ثار ضد الدولة العباسية، وكذلك علي ابن عيسى، وهو أحد وزراء بني العباس، ورغم الضغوطات الشديدة التي واجهها لم يقبل بتكفير القرامطة وكذلك القاضي ابي جعفر احمد بن اسحاق بن البهلول في دفاعه عن علي بن عيسى قال: اذا لم يصح عنده "اي علي بن عيسى" كفرهم وكاتبوه بالتسمية لله ثم الصلاة على رسوله http://www.qatifoasis.com/images/prefix/a1.gif وانتسبوا الى أنهم مسلمون وانما ينازعون في الامامة فقط لم يطلق عليهم الكفر [[25]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a25)  وأعجب من ذلك بل أعجب ما في التاريخ الاسلامي هذا الضعف الذي طرأ على الدولة العباسية وامرائها، حيث ان أبا طاهر هاجم الكعبة عام 317هـ ومعه ستمائة فارس وتسع مائة راجل [[26]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a26)  وقلع باب البيت الحرام، وقبة زمزم والحجر الاسود ثم عاد ومعه الحجر الأسود الى الأحساء [[27]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a27)  ولم تتمكن الخلافة العباسية من اتخاذ أي اجراء ضد ابي طاهر، بل اكتفى الخليفة المقتدر بارسال رسالة الى ابي طاهر يعاتبه فيها ويتوعده، فرد عليه بما يدل على عدم اكتراثه به [[28]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a28) .

والأدهى من ذلك كان يبقى الحجر الاسود - ان صدق هذا الادعاء - زهاء عشرين سنة في الأحساء ولم يتحرك جيش ولا كتيبة، ولا غيور من المسلمين لاسترجاعه، لا من قبل الدولة العباسية التي حشدت اربعين الف مقاتل لمنع ابي طاهر من دخول بغداد، ولا من الدولة الفاطمية التي بسطت نفوذها على المغرب العربي، ومصر وبلاد الشام، والتي كانت جيوشها في حالة أفضل من التشرذم الذي بليت به جيوش الدولة العباسية، ولم يذكر أحد من الكتاب أو الأدباء، والشعراء او المؤرخين انه زار مكة، وأراد استلام الحجر الاسود فلم يجده، فتألم لذلك، او تملكه الاستغراب فاندهش وغضب لعدم وجود الحجر الاسود. ولم يذكر أحد من التجار او قوافل الحج القادمة من فارس او العراق خلال العشرين سنة انه رأى الحجر الاسود في طريقه الى الحج عند عبوره على الأحساء.

ولم يحتج الناس ويتجمهروا او يكسروا منبر بغداد كما حدث عندما وصلت جحافل الصليبيين الى القدس، لذا يشكك الشيخ حمد الجاسر في كتابه "معجم المنطقة الشرقية" في صحة ما جاء عن اخبار القرامطة في معرض حديثه عنهم فيقول ما نصه "لكن الباحث حين يحاول البحث عن مصادر لأخبارهم يعوزه وجودها في غير مؤلفات مخالفيهم. يقول احد الكتاب المعاصرين معبرا عن استغرابه: (ومن الغريب ان لا نجد في الآثار الادبية ما يعبر عن عمق هذه المأساة التي هزت ضمير العالم الاسلامي لما لها من مساس بمقدساتهم).

 نحن نقول له لا غرابة أبدا، لكن لا نجزم بذلك فربما تكشف لنا الأيام أدلة على وقوع حادثة، وان ضمير العالم الاسلامي قد اهتز فعلا، فهذا الحدث لا يعقل ان لا تكون له ردة فعل بحجمه وعلى مستواه، فاذا لم نجد في كتب السير ولا في قصائد الشعراء ردود أفعال، ولم نجد ايضا كلاماً عن احتفال بمناسبة رجوع الحجر الاسود الى مكة، ولم يفتخر سلطان ذلك الزمان، وينادي باسمه في كل بلاد المسلمين على انه بطل الابطال وصمصام الدين لأنه أرجع الحجر الاسود بعد عشرين سنة من اغتصابه، فهذا يعني ان هذا الحادث لم يقع، وان الحجر لم يمكث كل هذه المدة بعيدا عن مكة وعن الكعبة، وما ذكر من أقوال متضاربة حول رد الحجر تكفي دلالة على انها اضعف من أوراق الخريف، فقد ذكر ابن الاثير ان أبا طاهر هو من رده، وذكر ابن الاثير نفسه في رواية اخرى ان ابا طاهر لم يقبل عرضا بحكم ولم يستجب لطلب الفاطميين والعباسيين برد الحجر الاسود، وان من رده هو سنبر بن حسن بن سنبر، وهكذا دواليك بقية الروايات الاخرى.

رغم ذلك، فالله أعلم بما جرى، وان كان ابو طاهر اقتلع الحجر الاسود حقا فِتلك مصيبة كبرى، وان كان لم يأخذه ولم ينقله فهذه الرواية ليست سوى محض خيال نسجته السياسة العباسية للمساس بسمعة أعدائها القرامطة كما فعلت سابقا مع الأسرة الفاطمية حيث شككت في صحة نسبهم العلوي مدعية انهم من أصل يهودي.

اما ما ذكره صاحب كتاب (المنطقة الشرقية حضارة وتاريخ) فهو محاولة يائسة لاثبات زيادة في قصة جلب القرامطة للحجر الاسود التي تحدث عنها أعداء الدولة القرمطية اذ يقول: وحمل الحجر الاسود والميزاب وأتى بهما الى بلاد القطيف وبنى بيتا سماه الكعبة"[[29]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a29)  ولم يشر المؤلف الى مصدر او مرجع ذكر شعراً او نثراً للقرامطة ادعوا فيه هذا الادعاء. هذا ما قال الكاتب ثم يكمل زياداته على ما كتب المؤرخون فيقول: "وهذا المكان معروف موقعه حتى الان لدى غالبية اهالي القطيف وهو يقع بين "الجش وسيهات جنوب غربي مدينة القطيف" [[30]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a30)  ثم يشير الى صورة لقصر قديم دائري الشكل ويقول انه المكان الذي وضع فيه الحجر الاسود وانهم سموه الكعبة.

وأغلب الظن ان الفطنة غابت عن القرامطة فلم يصنعوا الكعبة مربعة. ثم يكمل قائلا: "وقد حاول القرامطة ان يجعلوا من هذا المكان بديلا عن الكعبة ولكنهم فشلوا في حركتهم حيث جابههم ابناء القطيف بالرفض القاطع والمقاومة العنيفة" [[31]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a31) . وهذا الرفض القاطع كالادعاءات السابقة لم يذكر لها مصدرا في كتابه، ولم يشر كما تردد او احتمال بين مكانين او اكثر لموقع الحجر الاسود بالجزم وكأنه رأى الحجر موضوعا في المكان المزعوم بعينه.

ورغم ان المؤرخين أنفسهم يشككون في وقوع الحادثة من أساسها، كما ان العام الذي بنيت فيه المؤمنية [[32]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a32)  هو نفس سنة الاغارة على مكة، فان صح انهم جلبوا الحجر الاسود فلماذا لم يضعوه في المؤمنية حديثة البناء،.خصوصا انهم على - ما يزعم - أرادوا ان يحولوا مسار الحجيج الى هجر. وهذا يعني ان " ابا طاهر" مكث يخطط لنقل الحجيج من بلاده شهورا او سنوات على الأقل فلابد ان يعد لهذا المشروع الكبير مكاناً مناسباً ينجزه فيحضر الحجر الاسود ويدعو الناس لقصده والحج اليه. اما آخر بناء ذكره لنا التاريخ في تلك السنة فكان بناء مدينة المؤمنية [[33]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a33) .

لماذا اختار القرامطة مدينة شبه داخلية لتكون عاصمة لدولتهم؟

قبل الاجابة على هذا السؤال أفضل أولا محاولة تحديد مكان "هجر" التي بنيت بجانبها عاصمة القرامطة الأحساء، لمعرفة موقعها لنتكلم عن مميزات هذا الموقع، ولا يغيب عن أذهاننا ان الأحساء والقطيف جناحا المنطقة الشرقية، فما يحدث هنا تصل اصداؤه كاملة هناك، خصوصاً الاحداث السياسية والعسكرية وما يواكبها من حملات بسط النفوذ على المنطقة، وهكذا بالنسبة للموقع الاداري أيضا فلابد ان تكون احداهما تابعة للأخرى إداريا. حين كانت المنطقة خاضعة للحكم الفارسي كانت السلطات العليا تتركز بيد الوالي الذي يسمى "مرزبان" وكانت المنطقة مقسمة اداريا الى قسمين، لكل قسم مرزبان خاص فهجر لها مرزبان مقره المشقر وللقطيف مرزبان مقره الزارة [[34]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a34) .

وفي السنة التاسعة أرسل رسول الله http://www.qatifoasis.com/images/prefix/a1.gif ابان بن سعيد بن العاص لجمع الجزية بجانب العلاء بن الحضرمي، فكان كل واحد منهما على جهة من جهات البحرين يجمع المال منها[[35]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a35) . والمقصود من الجهتين الوارد في الرواية اما ان تكون الجهة الأولى هي الخط وجزيرة أوال والثانية هي هجر، او يكون الجناح الأول هو الخط وهجر، والثاني أوال، وأقرب الظن ان جزيرة أوال والخط هي الجهة الأولى، والثانية هي هجر أو الأحساء اليوم، لأن الكثافة السكانية في هجر اضافة الى المساحة الزراعية تعادل الزراعة والسكان في كل من الخط وأوال مجتمعتين، والذي يدعو لترجيح هذا الرأي هي الاسباب التي سنذكرها في الكلام القادم تجنبا للتكرار.

اما عن هجر فقد ذكر فيدال ان:" موقع عاصمة المنطقة على مقربة من مدينة الهفوف الحديثة وكانت تسمى هجر، وهذا الاسم كان يطلق أيضا على المنطقة إذ يشمل مجموعة الواحات المحيطة بالمدينة" [[36]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a36)  ويستنتج الباحثون [[37]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a37)  من قول ابن الفقيه ان قصبة هجر هي الصفاء والمشقر والشبعات، انها كانت على جانب كبير من الاتساع بحيث يشمل عدة أحياء، ولو أن هذه الأحياء كانت منفصلة عن بعضها البعض، فقد وردت الاشارة ايضا الى ان ثمة نهر يجري بين الصفا والمشقر يقال له العين، مما يعني ان الأسماء الثلاثة كانت أحياء منفصلة تتكون منها مدينة هجر العظمى. وهذه المقولة تحتاج تفصيلا لمعرفة مواقع هذه المناطق الثلاث التي تتكون منها هجر.

أولا الصفا:

يقول ياقوت الحموي بأن الصفا نهر يتفرع من عين (محلم) والتي جاء في تعريفها انها منسوبة الى محلم بن عبد الله زوج هجر بنت المكنف.. وهي العين التي قال عنها ابو منصور الازهري: هي عين فوارة بالبحرين لم تر عيني أكثر منها ماء.. وماؤها حار في منبعه.. فاذا فارقه برد..ولهذه العين اذا جرت نهرها خلج كثيرة تسقي نخيل جواثا وعسلج.. وقرى من قرى هجر.. نجد أن هذا الوصف ينطبق على عين "الحارة" وهي موجودة الى هذا اليوم - التي تصل مياهها الى قرى البطالية والكلابية والعبة.. أما عسلج فيصفها بأنها قرية من قرى هجر غير معروف موقعها بالوقت الحاضر [[38]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a38) .

وذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان: ان عسلج احدى القرى الدارسة في هجر وهي مشهورة بزراعة النخيل التي تروى من عين محلم وكانت معروفة حتى القرن الرابع الهجري على ما يفهم من كلام الأزهري.. ومما تجدر الاشارة اليه أنه يوجد في قرية الجبيل احدى قرى واحة الأحساء موضع يعرف بعسلج مما يوحي بأن القرية الدارسة كانت في تلك الناحية[[39]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a39) .

ثانيا: المشقر

يقع حصن المشقر الى الشمال من مدينة هجر، وهو في نظر بعض الباحثين جزء من تلك المدينة إلا أنه يشكل في ذاته مدينة لها أهميتها. وقد وصفه ابن الأعرابي بأنه مدينة عظيمة قديمة تقع على قارة تسمى عطالة وفي أعلاها بئر تثقب القارة حتى تنتهي الى أرض وتذهب فيها، وماء هجر يتصلب الى هذه البئر في زيادتها، وعلاوة على وقوع الحصن فوق كل مرتفع فهو محصن تحصيناً قوياً، وقد جاء في مراصد الاطلاع انه من بناء طسم أو من بناء سليمان، وسكانه من عبد القيس. أما الحموي فيعرف المشقر بأنه "حصن يلي حصناً آخر يقال له الصفا.. قبل مدينة هجر وبين الصفا والمشقر نهر يجري يقال له العين [[40]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a40)  التي مر ذكرها سابقا. يقول شاعر الأزد وهو يصف أماكن سيطرة قبيلته:

وأزد لها البحران والسيف كله     وأرض عمان ثم أرض المشقر

أظن ان الشاعر يقصد بِـ البحران جزيرة البحرين، والسيف هو الساحل الشرقي مروراً بساحل القطيف وساحل العقير، وأرض عمان هي عمان ويبقى المشقر فإن الوصف لا ينطبق إلا على هجر حيث كانت المنطقة المهمة فيها هي المشقر قبل ان تصبح جواثا هي قصبة هجر، وقبل ان تصبح الأحساء هي قصبة هجر.

في هذا الحصن "المشقر" وقع حادث الصفقة بين تميم والفرس، وملخص القصة كما رواها ابن الأثير أن تميماً أغاروا على أموال بعث بها عامل كسرى على اليمن، فوشى بهم عامله باليمامة "هوذة الحنفي" فكلف عامله بالبحرين المكعبر ليدبر مكيدة للقضاء عليهم، وكان ذلك وقت جذاذ التمر، فنادى مناديه فيهم ليحضر من كان من بني تميم فان الملك أمر لهم بميرة وطعام، فحضروا كلهم في حصن المشقر، وظل يدعو عشرة ويضرب أعناقهم، وأخيراً أحسوا بالمكيدة، فضرب رجل منهم سلسلة الباب بسيفه فاندفعوا كلهم وفروا هاربين[[41]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a41) .

وثمة رواية أخرى [[42]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a42)  للمقريزي في كتابه "ايقاظ الحنقاء" يصف فيها حصار أبو سعيد لهجر وهي تثير في ذهن القارئ بعض الاستفهامات، فقد قال: ولم يمتنع عليه الا هجر وهي مدينة البحرين، ومنزل سلطانها وبها التجار والوجوه فنازلها شهوراً يقاتل أهلها ثم وكل بها رجلاً وارتفع فنزل الأحساء وبينها وبين هجر ميلان، فابتنى بها داراً وجعلها نزلاً له، وتقدم في زراعة الأرض. ومضى في الكلام الى أن قال: هذا وهو لا يغفل عن هجر، وطال حصاره لهم على نيف وعشرين شهراً حتى أكلوا الكلاب.. ومضى في الكلام الى أن قال: ثم عاد في خيل فدار حول هجر يفكر فيما يكيدهم به، فاذا لهجر عين عظيمة كثيرة الماء تخرج من نشز من الأرض غير بعيد منها، يتجمع ماؤها في نهر يستقيم حتى يمر بجانب هجر ثم ينزل الى النخل فيسقيه، فكانوا لا يفقدون الماء في حصارهم، فلما تبين له أمر العين.. ثم رجع الى الأحساء وجمع الناس كلهم وسار في آخر الليل فورد العين بكرة بالمعاول والرمل، وأوقار الثياب، والخلقان، والوبر والصوف وأمر بجمع الحجارة ونقلها الى العين وأعد الرمل، والحصى، والتراب ثم أمر بطرح ذلك كله، فقذفته العين ولم يغير ما فعله شيئا، فانصرف الى الأحساء بمن معه وفر بالخيل، فضرب البحر حتى عرف أن منتهى العين في ساحل البحر وانها تنخفض كلما نزلت، فصرف جميع من كان معه وانحدر على النهر نحوا من ميلين وأمر بحفر نهر هناك، وأقبل يركب هو وجمعه في كل يوم العمال يعملون في حفرة الى السباخ، ومضى الماء فانصب في البحر ثم سار فنزل على هجر وقد انقطع الماء عنهم ففر بعضهم وركب البحر ودخل بعضهم في دعوته وخرجوا اليه فنقلهم الى الأحساء.

ونقل أبو علي غريب بن سعيد ان الحصار دام أربع سنين فقد وضع القرمطي السيف في رقابهم وقتل منهم ثلاثمائة ألف بالقائهم أحياء في النار، وتمكن قليل منهم من الفرار الى جزيرة أوال ولم يبق في هجر يومئذ على قيد الحياة إلا عشرون رجلا. هذه الرواية تشير الى أن الحصار وقع على هجر وهي سهلة التضاريس ولم يكتشف المحاربون وجود العين الرئيسية إلا بعد نيف وعشرين شهراً وهذا مستبعد جدا، خصوصاً ان المهاجمين هم من القبائل التي تجوب وتتردد على هذا المكان لأخذ الميرة وغيرها.. كما أن نهراً مكشوفاً على سطح الأرض في منطقة أعز شيء فيها الماء، فلا يرى ولا يكتشف هذا الشيء جد غريب، خصوصاً مع هذه المدة الطويلة، وكيف لم يخطر على ذهن هذا القائد وجيشه أن يلتف حول هذا الحصن فيكتشف وجود النهر في الشهر الأول أو على الأقل الثلاثة شهور الأولى للحصار، وهذا يدعونا الى الاستنتاج التالي:

إما أن يكون زمن الحصار مبالغاً فيه وهذا ليس ببعيد، وأن يكون ابو سعيد قصد تأجيل الهجوم على هجر لسبب ما. أو تكون رواية النهر والعين قد أخذها المؤرخون بالنقل الذي تشوبه كثير من الاشتباهات، والنقصان أو الزيادات، وكيف يضرب في البر فيصل الى البحر؟! وأي بحر هذا الذي يقرب من هجر حتى يحرف النهر اليه من حصن هجر. وفي الرواية شيء مثير للاستغراب، وهو ان أبا سعيد حين تمكن من الحصن قتل ثلاثمائة ألف بـإلقائهم أحياء في النار، وأي حصن هذا الذي يحمل هذا الحشد من الناس ولمدة عشرين شهرا ونيف وعلى رواية أربع سنوات، أظن أن هذا المؤرخ قد خلط في معلوماته، بين حصار حروب الردة [[43]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a43)  التي خاضها العلاء الحضرمي في هجر وحروب أبي سعيد القرمطي.

إذ جاء أن أبا العلاء حاصر الزارة حصاراً دام طوال مدة خلافة أبي بكر أي قرابة الأربع سنوات ثم اكتشف العين التي تسقي الحصن فردمها، وهذا السياق يوضح أن سبب سقوط هذا الحصن هو ردم العين، وأقرب ما يكون ان اكتشاف العين ما هو إلا أحد العوامل المساعدة فقط، واكتشاف العين بعد أربع سنوات مستبعد لان الحصن في مثل موقع الزارة التي تقع على ساحل البحر من السهل الوصول إليها واكتشافها فلماذا التأخير الذي دام مدة خلافة أبو بكر، كما أن وصف النهر وأنه ينتهي الى البحر، لا يصلح لموقع الزارة حيث انه مشى آخر الليل فوصل بكرة أي انه مع طلوع الصباح وصل، وهذه مسافة ليست ببسيطة لأنه من المستبعد كون الزارة بهذا البعد عن شاطئ البحر، كما أن أبا سعيد ابتعد ميلين ليحفر النهر ويحرف مجرى المياه. وهذا أيضا لا داعي له لأن البحر قريب جداً وهذه المسافة لا جدوى منها، ان الاشتباه والخطأ في الكتابات التاريخية محتمل ومتوقع حتى ممن يعاصر الحدث، فكيف بمن يكتب عن حدث وقع في زمن لم يعايشه، وما وقع فيه ناصر خسرو شاهد العيان الذي كتب عن الأحساء في زمن القرامطة خير دليل على ما نقول، إذ نسي أن يذكر مسجد جواثا الموجود في الأحساء رغم إقامته هناك لفترة تكفي للاطلاع على أدق التفاصيل للمنطقة خصوصاً مسجد جواثا الذي له شهرته كأول مسجد بُني في المنطقة، وثاني مسجد أقيمت فيه الجماعة في تاريخ الاسلام.

نعود بعد هذا الاستطراد للإجابة عن السؤال المتقدم الذي قدمنا له بمناقشة موقع هجر، ورواية المقريزي، السؤال يقول: لماذا اختار القرامطة مدينة شبه داخلية لتكون عاصمة لدولتهم؟

إن الحاجز الطبيعي المكون من المناخ الصحراوي، والكثبان الرملية القاحلة التي تحيط بهجر جعلها حصينة ضد أطماع الطامعين، واعتداء الغزاة اذ يحدثنا التاريخ عن الملك السلجوقي "انطيوخس الثالث" حين سمع عن خيرات أهل هجر وان عماد ثروتهم الذهب والفضة [[44]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a44)  أرسل أسطوله عند ساحل الخط [[45]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a45)  قاصداً من ذلك الاستيلاء على كنوز هجر، لكن أهلها خوفاً منهم على مدينتهم أرسلوا اليه رسولا يحمل رجاء ألا يسلبهم نعمة السلام، والحرية ولما ترجم خطابهم للملك أجاب طلبهم "فبعثوا إليه هدايا ثمينة [[46]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a46)  اشتملت على خمسمائة تالات من الفضة وهي تعادل ثلاثة عشر ألف وثمانين (كجم) ومائتان من الطيب المسمى بالميعة أي ما يوازي خمسة آلاف ومائتين واثنين وثلاثين (كجم) وبعد أن تسلم انطيوخس الثالث هداياهم هذه قفل عائدا الى بلاده.

وربما كانت الصحراء القاحلة وما تحمله المغامرة عبر مفارزها السبب الرئيسي الذي اقنع الملك بالعودة عن عزمه [[47]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a47)  وكان سابور ذي الأكتاف حين نقل العرب من شط الفرات انزل جماعة منهم العقير [[48]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a48)  عقاباً لهم وإبعادا لهم عن منطقة الأحداث التي كانوا فيها، فكانت محطتهم الرئيسية التي سيصلون اليها عبر قوافل الجمال هي هجر، وبذلك لن يصبح لهم أي تأثير على استقرار منطقة الفرات.

يستشف من ذلك أن هجر منطقة سهلة ممتنعة مما جعل سابور ينفي أعداءه اليها. ومن المأثور قول عمر بن الخطاب: "عجبت لتاجر هجر وراكب البحر" لشدة المخاطر التي يتعرض التاجر لها في تنقله في تلك البيد والصحارى، ولكن هناك جهة أخرى جعلت من موقع هجر سهلاً ممتنعاً، يحميها من الأعداء، صعوبة الطقس والصحراء القاحلة التي تحيط بها، فتحوز على الأمن والسلام والحرية من الضغوط السياسية والتسلط، وكذلك تصلها قوافل التجار من كل حدب وصوب كما سيأتي، وتخرج منها القوافل الى كل الاتجاهات، وذلك بفضل وجود الساحل القريب نسبياً المتمثل في ميناء العقير، والقطيف، والزارة كما ذكر "ش. ف. فيدال" بقوله: ولم يكن الوصول الى الأحساء أمراً صعباً حتى قبل استخدام السيارات، فهناك طرق معروفة للقوافل تربط بين الهفوف والقطيف ويبرين والكويت، ومن بين تلك الطرق جميعاً فان أكثر الطرق تفضيلاً هو الطريق الواصل بين العقير والهفوف، ومن ثم الى الرياض والمنطقة الغربية [[49]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "a49) ..

**المصادر:**

**1-** [**كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة 1/2**](http://khutabaa.com/index.cfm?method=home.con&ContentID=4898)

**2- مطلع البدور ومجمع البحور، ابن أبي الرجال.**

**3- نواطح السحاب في تاريخ مسور المنتاب، الشيخ أحمد دحان جبارة.**

**4- سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين، ويلفريد مادلونغ.**

**5- معجم البلدان والقبائل والأعلام بمحافظة عمران، الشيخ أحمد دحان جبارة.**

1. [**^**](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%A8#cite_ref-1)**^ Mohammed Abdo Al-Sururi (1987). political life and aspects of civilization in Yemen during the reign of Independent States . University of Sana'a. p. 32**
2. [**^**](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%A8#cite_ref-2)**Fatima Mernissi The Forgotten Queens of Islam p.14 U of Minnesota Press, 1997**[**ISBN 0-8166-2439-9**](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AE%D8%A7%D8%B5:%D9%85%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D8%B1_%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8/0816624399)
3. [**^**](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%A8#cite_ref-3)**Farhad Daftary (2005). *Ismailis in Medieval Muslim Societies: A Historical Introduction to an Islamic Community*. I.B.Tauris. صفحة 93.**[**ISBN**](https://ar.wikipedia.org/wiki/International_Standard_Book_Number)[**1845110919**](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AE%D8%A7%D8%B5:%D9%85%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D8%B1_%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8/1845110919)**.**
4. [**^**](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%D8%A8%D9%86%D8%AA_%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%A8#cite_ref-4)**Guida Myrl Jackson-Laufer (1999). *Women Rulers Throughout the Ages: An Illustrated Guide*. ABC-CLIO, 1999. صفحة 41.**[**ISBN**](https://ar.wikipedia.org/wiki/International_Standard_Book_Number)[**1576070913**](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AE%D8%A7%D8%B5:%D9%85%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D8%B1_%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8/1576070913)**.**

**أروى الصُليحية**

**(440-532هـ/1048-1138م)**

**السيدة الحرة أروى بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي، وأمها رداح بنت الفارع بن موسى، ملكة حازمة مدبّرة، زوجة المكرّم أحمد بن علي الصليحي ملك اليمن، من الأسرة الصليحية التي حكمت اليمن بعد أن وحدت معظم إِماراته (439-533هـ) ونشرت الدعوة الإِسماعيلية الفاطمية المستعلية فيه، عرفت بلقب السيدة الحرّة حتى غلب على اسمها في كتب التاريخ.**

**ولدت في حصن مسار من جبال حراز باليمن، ونشأت في رعاية أسماء بنت شهاب زوجة الملك علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية، بعد وفاة والدها أحمد الصليحي وزواج والدتها من عامر بن سليمان ابن عامر بن عبد الله الزواحي.**

**عرفت الملكة الحرّة بالجمال وحسن الأخلاق والشخصية النافذة، وكانت قارئة كاتبة، تحفظ الأشعار والأخبار والتواريخ، وكان الملك علي معجباً بها فكان يوصي زوجته فيقول لها: «أكرميها فهي والله كافلة ذرارينا وحافظة هذا الأمر على من بقي فينا».**

**تزوجها المكرّم أحمد بن علي سنة 458هـ في حياة أبيه، وتولى الحكم من بعده (459-481هـ) فأنجبت منه ولدين وبنتين، ومات ولداها سنة 467هـ وفوّض الأمور إِلى زوجته أروى، فكان أول ما قامت به، بعد أن غادرت صنعاء، أن اتخذت مقرها في قصر شاده زوجها في حصن ذي جبلة ونقل إِليه ذخائره وقامت بتدبير المملكة خير قيام وبسطت سلطانها على القبائل اليمانية، فخضع الناس لها، ومنحها الخليفة الإِمام المستنصر بالله منصب داعي الدعاة ولقبها: «السيدة الحرّة، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإِسلام، ذخيرة الدين، عصمة المؤمنين، كهف المستجيبين، وليّة أمير المؤمنين، كافلة أوليائه الميامين» وعدّها المثل الأعلى للحاكم لكفايتها في تدبير شؤون الحكم، وكانت المراسلات المستنصرية الإِمامية تصدر إِلى اليمن باسمها.**

**وبعد وفاة زوجها المكرّم سنة 481هـ اختلف الصليحيون والزواحيون فيمن يتولى الحكم، وكان زوجها قد أوصى أن تسند أمور الدعوة إِلى الأمير المنصور سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي الذي طمح إِلى الزواج بالسيدة الحرّة، فلم ترض أروى بهذا الاختيار، واحتكم سبأ إِلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي الذي أمر أروى أن تقبل بسبأ زوجاً، فوافقت بعد تردد، ولكنّ هذا الزواج ظلّ صورياً، وظلّت أروى تمسك بمقاليد الحكم الفعلية، وتُرفع إِليها الرقاع، ويجتمع عندها الوزراء، ويدعى لها على منابر اليمن، فيخطب أولاً للخليفة الفاطمي ثم لسبأ ابن أحمد ثم للسيدة الحرّة أروى. ولم تلبث أن استقلت بأمر الحكم بعد وفاة زوجها الثاني سبأ سنة 492هـ، واعتمدت في تدبير أمور الملك على عدد من الثقات، منهم: المفضّل بن أبي البركات، وزريع بن أبي الفضل، وعليّ بن إِبراهيم بن نجيب الدولة وغيرهم، وامتدت أيام حكمها بعد ذلك أربعين سنة، استطاعت في أثنائها أن تمارس سيادتها على الإِمارات اليمنية الصغيرة من دون إِخضاعها.**

**ولّما قدم ابن نجيب الدولة إِلى اليمن موفداً من الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة 513هـ وداعياً له، فأقام الحدود وأخضع الإِمارات المتمردة، عزّ جانب الحرّة وانقمع أهل اليمن، إِلا أنه بدأ منذ سنة 519هـ يسيء إِلى الحرّة ويستخفّ بأمرها ويدّعي أنها قد خرفت واستحقت أن يحجر عليها، وحاول أن ينتزع الحكم منها، ولكنّ أمراء البلاد وشيوخها ساندوها واتهموا ابن نجيب الدولة بالتآمر على** [**الخلافة**](http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=5834&vid=9) **والدعوة النزارية، فأمر الخليفة بالقبض عليه وإِعادته إِلى مصر، ولكن السفينة التي كانت تقلّه غرقت في أثناء الرحلة، وأسندت الحرّة أمر الدعوة إِلى سبأ بن أبي السعود من آل زريع (وهو أول بني زريع الذين خلفوا الصليحين).**

**وقد عملت أروى إِبّان حكمها على تشجيع البناء والعمارة وأولت إِنشاء المدارس والمستشفيات والمساجد اهتمامها الزائد، ولم يقف نفوذها عند حدود اليمن، فقد عهد إِليها الخليفة المستنصر بالله ومن بعده الآمر بأحكام الله بالإِشراف على الدعوة الفاطمية في عُمان والهند.**

**عُمّرت أروى طويلاً، فلمّا ماتت تبارى الشعراء في رثائها، ودفنت في مسجد كانت بنته بذي جبلة، وقبرها ما يزال حتى اليوم مزاراً يسعى الناس إِليه ويتبركون به.**

**وعلى إِثر وفاتها دبّ الضعف في جسد الدولة الصليحية الإسماعيلية وتفككت أوصالها وصار الأمر فيها إِلى الأمراء من آل زريع، وكانت الدولة الفاطمية في مصر تعاني الانهيار أيضاً، وانتهى أمر الصليحين تماماً بعد أن غزا طوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين اليمن سنة 569هـ.**

**الهوامش**

**[[1]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b1)  ـ تاريخ هجر الجزء الثاني - عبد الرحمن بن عثمان الملا.ص 534.****[[2]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b2)  ـ تاريخ هجر ج2 - ص 542.****[[3]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b3)  ـ تاريخ اخبار القرامطة - ثابت بن سنان - ص 195.****[[4]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b4)  ـ ناصر خسرو المولود سنة 394 هـ مسلم سني أجاد العربية والفارسية باتقان، وقد شهدت خراسان في بداية القرن الخامس نشاطاً دينياً كبيراً تجلى فيه الصراع بين مختلف المذاهب والفرق، وتأثر ناصر خسرو بهذا الصراع فعايش الشكوك فترة من الزمن، ثم تحول من السنة الى الشيعة لكن ذلك لم ينه حالة الشك لديه، فقد احتار الى أي فرق الشيعة ينتمي، وهنا عزم على الرحيل بحثاً عن الحقيقة ودامت رحلته سبع سنوات وصل فيها الى القاهرة ثم الحجاز، ثم الأحساء، ثم البصرة، ثم عاد الى خراسان وكان ذلك عام 444هـ، وابتداء رحلته كان سنة 437هـ. نقلا عن أخبار القرامطة - الدكتور سهيل زكار ص 58****[[5]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b5) ـ دولة آل الجنابي "لم تسم باسم" لكن على ما يظهر ان هذه الدولة كانت تسمى باسم الاسرة الحاكمة"دولة آل الجناب" وذلك نستنتجه من خلال الكيانات السياسية الموجودة في تلك الحقبة التاريخية كالدولة الفاطمية نسبة للخليفة الفاطمي في المغرب، والدولة العاسية نسبة الى حكامها بنو العباس****[[6]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b6)  ـ تاريخ اخبار القرامطة -ص 69.****[[7]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b7)  ـ سفرنامه- ناصر خسرو ص 93.****[[8]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b8)  ـ المصدر السابق.****[[9]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b9)  ـ هذا نقلاً عن ناصر خسرو، ولا أدري كيف غاب عنه وجود مسجد جواثا الذي بني في عهد الرسول http://www.qatifoasis.com/images/prefix/a1.gif، لكنه ذكر وجود مسجد بناه شخص فارسي ليستقبل فيه الحجاج، ربما يكون هو مسجد جواثا.****[[10]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b10)  ـ القرامطة بين الدين والثورة - حسن بزون-ص 111.****[[11]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b11)  ـ تاريخ هجر ج 2-ص 527.****[[12]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b12)  ـ القرامطة بين الدين والثورة - ص144.****[[13]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b13)  ـ تاريخ هجر ج 2- عبد الرحمن بن عثمان الملا.ص 534.****[[14]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b14)  ـ القرامطة بين الدين والثورة ص 146.****[[15]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b15)  ـ ثلاثيات الحلم القرمطي - محي الدين اللاذقاني -ص 42.****[[16]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b16)  ـ ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ- المجلد السادس ص 147.****[[17]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b17)  ـ العبر المجلد الثالث- ابن خلدون-ص 377.****[[18]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b18)  ـ ثلاثيات الحلم القرمطي - ص 43.****[[19]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b19)  ـ المصدر السابق ص 82.**[**[19]**](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1#b19)**ـ اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار - الطبعة الثانية 1969م ص 346 المؤلف ابو الوليد محمد بن عبد الله أحمد الأزرقي.****[[20]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b20)  ـ ثلاثيات الحلم القرمطي- ص 45.****[[21]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b21)  ـ القرامطة بين المد والجزر -مصطفى غالب - ص 410.410.****[[22]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b22)  ـ القرامطة بين المد والجزر -مصطفى غالب - ص 410.****[[23]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b23)  ـ القرامطة بن الدين والثورة - ص 143.****[[24]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b24)  ـ ثلاثيات الحلم القرمطي - ص 83.****[[25]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b25)  ـ معجم الادباء ج 2 ياقوت الحموي ص 147.****[[26]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b26)  ـ منطقة الأحساء عبر أطوار التاريخ -خالد بن جابر الغريب-ص 135.****[[27]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b27)  ـ القرامطة بين المد والجزر - مصطفى غالب- ص 110.****[[28]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b28)  ـ المصدرالسابق ص 410. أحسب ان هذه الرسالة كانت لاعتداء عام 311هـ الذي لم يؤخذ فيه الحجر الاسود، وان اشتباها ما وقع فيه الكاتب والله العالم، ولم أجد نصاً للرسالة التي قال عنها عام 317هـ ومن قبل المقتدر فيما توفر لي من مصادر.****[[29]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b29)  ـ المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية حضارة وتاريخ-محمد علي صالح الشرفاء- ص 191.****[[30]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b30)  ـ المصدر السابق- ص 192.****[[31]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b31)  ـ المصدر السابق.****[[32]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b32)  ـ اسم لأول مدينة بناها أبو طاهر الجنابي لتكون عاصمة حكمه.****[[33]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b33)  ـ صفحات من تاريخ الأحساء - عبد الله بن أحمد الشباط ص 214.****[[34]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b34)  ـ واحة على ضفاف الخليج "القطيف" - محمد سعيد المسلم-ص 192.****[[35]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b35)  ـ منطقة الاحساء عبر اطوار التاريخ- ص 47 نقلا عن فتوح البلدان للبلاذري ص 89****[[36]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b36)  ـ واحة الأحساء - تاليف: ف.ش. فيدال- ترجمة د. عبد الله بن ناصر السبيعي، وقد ذكر أنه يحتمل ان يؤدي مسح آثاري دقيق لسطح المنطقة، اذا ما تم، بين الواحة وبقعة الفوار الى تحديد موقع هجر دون صعوبة تذكر المصدر السابق ص 27.****[[37]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b37)  ـ سعد زغلول عبد الحميد، البحوث المقدمة للجنة تدوين تاريخ قطر، الجزء الأول ص 24، نقلاً عن تاريخ هجر ص 144.****[[38]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b38)  ـ صفحات من تاريخ الأحساء-ص 53.****[[39]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b39)  ـ تاريخ هجر الجزء الأول- تأليف عبد الرحمن بن عثمان آل ملا، ص 187.****[[40]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b40)  ـ صفحات من تايخ الأحساء- ص 106.****[[41]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b41)  ـ واحة على ضفاف الخليج " القطيف" -ص 192.****[[42]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b42)  ـ تاريخ هجر المجلد الأول- ص 146.****[[43]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b43)  ـ اثناء حروب الردة بعد وفاة الرسول "ص" قاد ابو العلاء الحضرمي جيوش الخلافة حيث فك حصار هجر ثم عطف الحضرمي على القطيف يسانده أهل هجر بقيادة الجارود ليستعيد القطيف، ودارين، ثم ليحاصر الزارة التي احتمى فيها المكعبر مع فلول الفرس.****[[44]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b44)  ـ تاريخ الأحساء السياسي- د. محمد عرابي نخلة- ص 24****[[45]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b45)  ـ تاريخ هجر، المجلد الأول - ص 131. وجاء في مروج الذهب للمسعودي ان مدينة القطيف والزارة هي ساحل هجر، وحدد ابن خرداذبة ساحل هجر بأنه المنطقة الواقعة شمال العقير.****[[46]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b46)  ـ تاريخ الأحساء السياسي - ص 24.****[[47]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b47)  ـ تاريخ هجر، المجلد الأول- ص 170.****[[48]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b48)  ـ تاريخ هجر، المجلد الأول - ص 170.****[[49]](http://www.qatifoasis.com/?act=artc&id=627&print=1" \l "b49) ـ واحة الأحساء ص 40- ف.ش.فيدال.**